الباب الثانى
الدراسة التطبيقية

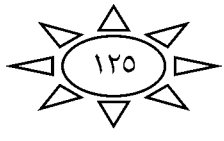

الفصل الأول
مختارات شعرية

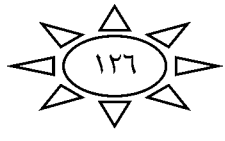

أولاً : ابن زيدون فى غزلـه وشكـــواه

بيئته :

يُعـد أبـو الوليـد أحمـد بـن عبـد الله بـن زيـدون الـذى عـاش بـين عـامى (٣٩٤-٤٦٣هـ) من أشهر شعراء الأندلس ، ومن أشهر الشعراء العرب على الإطلاق ، ومـن أكثـرهم رقـة أسلوب وعذوبـة بيـان ، زيد ديـوان الشعر العربـى بواحـدة مـن قصصـه العاطفيـة الكـثيرة كـان هـو بطلـها مـع ولّادة بنـت المستكفى من أواخر الخلفاء الأمويين بالأندلس .

ومن المعروف أن الأندلس عاشت فترة ازدهار الحضارة العربية تحت ظل الدولـة الأمويـة الثانيـة التـى أسسـها هنـاك عبدالرحمن ابـن معاويـة بـن هشـام بـن عبـد الملك الملقـب بعبـدالرحمن الـداخل واسـتمرت ثلاثـة قـرون بـين عـامى (١٣٨-٤٢٣هـ) وقد بلغت الحضارة العربية خلالها أوج رقيها وتألقها ولاسيما فى عهد عبدالرحمن الأوسط وابنه محمد وحفيده عبدالرحمن الناصر والحكم المستنصر فى القرنين الثالث والرابع الهجريين .

على أن عوامل الاضطراب كانت تتحرك داخل بناء الدولة الأموية فى الأندلس من خلال حياة الترف والبذخ التى عاشها الخلفاء والأمراء ومنْ فى طبقتهم من الوزراء وقادة الجند ، والتنافس المستمر بين العناصر المختلفة التى تكون منها نسيج الدولة من عرب وبربر وموإلي من الصقالبة والفرنجة ، بالإضافة إلي تربص الممالك النصرانية شمالي شبه الجزيرة بالدولة الإسلامية ، وتراخى الخلفاء المتأخرين فى الدفاع عن ثغورها والتجهيز المستمر للجيش ،

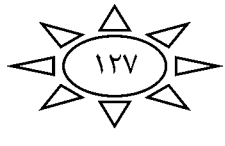

وتسرب روح الدعة والتكالب على المتع والملاذ إلي الأمة وتخليهم عن مبدأ الجهاد الذى ثبت أقدامهم على ذلك الفردوس الأوربى .

أضف إلي ذلك طمع لإفريقية والمغرب من الأدارسة فى الاستيلاء على جنة الأندلس أدت كل هذه العوامل وغيرها فى النهاية إلي سقوط دولة الأمويين ، وبداية عصر من التفكك أتاح لكل أسرة قوية أن تستقل بمدينة من مدن الأندلس العامرة عُرف بعصر ملوك الطوائف . من أمثال بنى جهْور وبنى زيرى . وبنى ذا النون . وبنى عباد وغيرهم .

حياتـــه :

وقد عاش ابن زيدون تلك الفترة التى شاهدت تدهور الدولة الأموية وسقوطها وقيام نظام ملوك الطوائف ، وتأثر بها فى فكره ومشاعره وسلوكه وأدبه ، فإذا كان وريث ثقافة راقية من خلال والده الفقيه المخزومى القرشى ، وجَدّه لأمه صاحب الأحكام الوزير أبو بكر محمد بن محمد بن إبراهيم الذى عمل بالقضاء ، فإنه فى الوقت نفسه أسير تلك الفترة التى أفعمت صدره بقلق وتوتر واضطراب شديد ، ولعله تمنى فى نفسه استمرار البيت الأموى بما يمثله من تميز للأندلس عن المشرق واستقلالها عن خلافتيه الكبيرتين العباسية فى بغداد والفاطمية فى القاهرة فالفتى الناشئ فى قرطبة لا شك كان يشعر بالولاء لعاصمته وللخلافة التى يراها تتداعى أمام عينيه ، ولعله طمع أن ينتسب إلي هذا البيت ويرتفع فى مجال السياسة بصلته به من خلال علاقته الغرامية بابنة المستكفى التى لاشك أن جانباً كبيراً من استمرارها من جهته على الرغم من جهة

الأميرة يرجع إلي رغبته فى التمسك بحلمه وتمنيه تحققه ، غير أنه لا ينبغى أن يستبق الأحداث.

ولنبدأ باستعراض سريع لحياة الشاعر قبل أن نعرض لتلك التجربة العاطفية التى أنتجت القصيدة النونية الخالدة التى سنجعلها موضوعاً لدراستنا . وقد كانت هذه التجربة أيضاً سبباً غير مباشر فى محنة ابن زيدون وسجنه الذى أبدع فيه قصيدته السينية التى يستعطف بها أحد أصدقاءه ويستعين به على الخلاص من محنته وهى القصيدة الثانية التى سندرسها كذلك .

نشأ ابن زيدون فى قرطبة وفيها تلقى أول معارفه على يد أبيه بفضل أئمة عصره فى العلوم المختلفة ومن أشهر أساتذته " أبو بكر بن مسلم بن أفلح (٣٧٦ - ٤٣٣هـ) الذى كان راوية للشعر والأدب ، ونحوياً قديراً وعالماً بالعربية .

فما أن بلغ مبلغ الشباب حتى رشّحته ثقافته وألمعيته وأدبه لصداقة ابن الوليد الذى قدمه إلي أبيه أبى الحزم مؤسس الدولة الجهورية فى قرطبة الذى عينه كاتباً وسفيراً لدولته ، وفى تلك الأثناء نشأت علاقته بالأميرة ولاّدة وذاعت مما أثار عليه غيرة المنافسين وحقدهم ، وكانت ولاّدة شاعرة أديبة ، لا تغلق بابها دون شعراء قرطبة وكبار رجالها الذين كان أكثرهم خطراً فى منافسة ابن زيدون الوزير : أبو عامر بن عبدوس ولسبب ما ربما كان غضب ولادة من نقد ابن زيدون لأبيات نظمتها فى مجلس ضم حشداً من الأدباء والشعراء أو لعله اقتناعها بأن ابن عبدوس أقرب إلي تحقيق آمالها فى استعادة ملك آبائها

الضائع ، وأياً كان السبب فإن ولادة انقلبت على ابن زيدون وانقطعت عن مواصلته .

ولم يستسلم ابن زيدون بل حاول الإيقاع بين معشوقته وبين ابن عبدوس بدسه إليه رسالة على لسانها مملوءة سخرية واستهزاء وهذه الرسالة هى المعروفة بالرسالة الهزلية .

أشعل ذلك الصنيع قلب ابن عبدوس على شاعرنا ولكن الوزير كان أكثر حنكة وأقدر على الإيذاء ، فسرعان ما وشى على ابن زيدون عند أبى الحزم بن جهور وزيره فى تهمة السطو على أحد مواليه، وكان ابن زيدون قد باعه إليه ثم رجع فى بيعه ، وبذلك انتهى الأمر بابن زيدون إلي السجن الذى أمضى به عدة سنوات ، جعل خلالها يستعطف أبا الحزم وأبا الوليد ويشكو إليهما حاله والظلم الواقع به ويتشفع بالأصدقاء مثل أبى حفص بن برد دون جدوى .

ولم يجد "ابن زيدون" منفذاً لأزمته سوى الهروب من سجنه وظل متخفياً بضواحى قرطبة يبعث بقصائد الاستعطاف والاعتذار إلي ابن حزم حتى عفا عنه وأعاده إلي حاشيته .

وما لبث أبو الحزم ابن جهور أن توفى وخلفه ابنه الوليد صديق ابن زيدون فقدمه وأعلى مكانته على غيره من الشعراء ، ورفعه إلي مرتبة الوزارة ، وغمره ابن زيدون بقصائد مدحه ، ولكن أحوال الملوك دائماً فى تقلب ، فما أسرع ما فسدت العلاقة بين الشاعر والأمير ، فاضطر إلي الهروب من قرطبة إلي أشبيلية.

وكانت أشبيلية تحت إمرة آل عباد وهم ينتسبون إلي لخم إحدى القبائل العربية العريقة ، وكانت مملكتهم تنافس قرطبة فى مجدها وازدهارها ، لاسيما فى عهد المعتضد وابنه المعتمد الذين ملأ قصرهما بأقوى شعراء الأندلس مثل : ابن عمار ، وابن وهبون وابن حمدوس ، وابن خفاجة ، وغيرهم ، وحين وفد ابن زيدون عليها رحب به المعتضد أيما ترحيب حيث رأى فيه فرصة كبيرة لزيادة مجد دولته والنيل من حكومة منافسيه من بنى جهور فى قرطبة ، فقربه إليه واتخذ منه وزيراً وكذلك فعل ابنه المعتمد وقد نظم ابن زيدون فيهما قصائد تُعد من غرر مدائحه .

وفى سنة ٤٦٣هـ بدا للمعتمد ابن عباد الذى كان أكبر ملوك الطوائف فى حينه أن يضم مدينة قرطبة إلي ملكه فغزاها واستولى عليها وفى رفقته الشاعر ابن زيدون الذى كان قد شاخ وكبر سنه ومع هذا أمره ابن عباد بالرجوع إلي أشبيلية على رأس كتيبة من الجيش لإخماد فتنة نشبت بها فخضع الشاعر لأمره صاغراً رغم إحساسه بالضعف الشديد ، وما أن وصل إلي أشبيلية حتى لقى حتفه ، وخلف وراءه ديوان شعر وعدة رسائل أدبية وديوانية من أشهرها رسالتاه المعروفتان بالرسالة الهزلية سالفة الذكر والرسالة الجدية التى كتبها فى سجنه إلي أبى الحزم ابن جهور يستعطفه ويرجوه فك أسره .

ديوانه وشعــره :

وديوان ابن زيدون متوسط الحجم وقد أحصى أبياته بعض الباحثين فبلغت (٢٦٣٤) موزعة بين الغزل والوصف والرثاء والشكوى والهجاء والعتاب والإخوانيات غير أن الغزل والمديح يُعدان الغرضين الذيْن سيطرا على ثلثى

الديوان أو ما هو أكثر من ذلك ، ومن اللافت أن الشاعر قد خص كل منهما بأسلوب متميز عن الآخر ، فبينما نجده فى غزله رقيق الأسلوب سهل العبارة منغماً ، نراه فى مدحه قوى النسج محكماً جزلاً بالأوزان المبسوطة والقوافى الصعبة المهجورة مثل : قافيتى الضاد والفاء مؤكداً فحولته وقوة شاعريته ولا شك فى أنه كان موفقاً فى اختيار الأسلوب المناسب لكلا الغرضين المختلفين فى طبيعتهما والبواعث النفسية الداعية إليهما ، والمواقف التى تُنشد فيها ، فإنشاد المديح غالباً ما يكون فى مجلس الأمير المتلئ بالعلماء والأدباء المتربصين بالشاعر يقصدون أخطاؤه يشنعون بهناته الصغيرة ويضخمونها وهذه المجالس تتسم بالفخامة والأبهة فى كل مظاهرها فيتناسب معها الأوزان الفخمة والألفاظ الجزلة والعبارات المحكمة الرصينة ، وشتان بين هذا المقام وبين مقام الغزل .

وقد اخترنا لهذه الحلقة الدراسية قصيدتيه المشهورتين النونية فى الغزل ، والسينية فى الشكوى .

نونيته في الغـزل :

نظم ابن زيدون القصيدة بعد أن دبّت الخصومة بينه وبين صاحبته ولاّدة ووقع الخلاف واصطلى ناره وتلظى فى جحيمه فجعل يحاول بالشعر أن يؤكد وفائه وإخلاصه ، ويحاول استدرار عطفها واستعادة حبها ويصور آلامه ومعاناته مقارناً بينهما وبين أيام الوصال حين كانا يتساقيان كئوس النعيم ويتقلبان فى مرابع السعادة والنعيم والهناء ،**يقول**:

١- أضحى التنائى بديلاً من تدانينا

وناب عن طيب لقيانا تجافينا

٢. هلا وقد حان صبح البين صبحنا

حينا فقام بنا للحين ناعينا

٣. من مبلغ الملبسينا بانتزاحهم

حزناً على الدهر لا يبلى ويبلينا

٤. أن الزمان الذى مازال يضحكنا

أنساً بقربهم قد عاد يبكينا

٥. غيظ العدى من تساقينا الهوى فدعوا

بأن نغص فقال الدهر آمينا

٦. فانحل ما كان معقوداً بأنفسنا

وأنبت ما كان موصولاً بأيدينا

٧. وقد نكون وما يُخشى تفرقنا

فاليوم نحن وما يُرجى تلاقينا

٨. يا ليت شعرى ولم نعتب أعاديكم

هل نال حظاً من العتبى أعادينا

٩. لم نعتقد بعدكم إلاّ الوفاء لكم

رأياً ولم نتقلد غيره دينا

١٠- ما حقنا أن تقرا عين ذى حسد بنا

ولا أن تسرا كاشحا فينا

١١. كنا نرى اليأس تسلينا عوارضه

وقد يئسنا فما لليأس يغرينا

١٢. بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا

شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا

١٣. نكاد حين تناجيكم ضمائرنا

يقضى علينا الأسى لولا تأسينا

١٤. حالت لفقدكم أيامنا فغدت

سوداً وكانت بكم بيضاً لياليا

١٥. إذ جانب العيش طلقا من تألقنا

ومورد اللهو صاف من تصافينا

١٦. وإذ هصرنا غصون الوصل دانية

قطوفها فجنينا منه ما شينا

١٧. ليسق عهدكم مهد السرور فما

كنتم لا رواحنا إلاّ رياحينا

١٨. لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا

أن طالما غير النأى المحبينا

١٩. والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً

منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا

٢٠. يا سارى البرق غاض القصر فاسق به

من كان صرف الهوى والود يسقينا

٢١. وأسأل هنالك هل عنى تذكرنا

ألفا تذكره أمسى يعنينا

٢٢. ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا

من لو على البعد حياً كان يحيينا

٢٣. فهل أرى الدهر يقضينا مساعفة

منه وإن لم تكن غباً تقاضينا

٢٤. ربيب ملك كأن الله أنشأه

مسكا وقدر إنشاء الورى طينا

٢٥. أو صاغه ورقاً محضاً وتوجه

من ناصع التبر إبداعاً وتحسينا

٢٦. إذا تأود آدته رفاهيته

توم العقود وأدمته البرى لينا

٢٧. كانت له الشمس ظئراً في أكلته

بل ما تجلى لها إلاّ أحايينا

٢٨. كأنما أثبتت في صحن وجنته

زهر الكواكب تعويذاً وتزيينا

٢٩. ما ضر أن لم تكن أكفاءه شرفاً

وفى المودة كاف من تكافينا

٣٠. يا روضة طالما أجنت لواحظنا

ورداً جلاه الصبا غضاً ونسرينا

٣١. ويا حياة تملينا بزهرتهـا

منى ضروباً ولذات أفانينـا

٣٢. ويا نعيماً خطرنا من غضارته

فى وشى نعمى سحبنا ذيله حينا

٣٣. لسنا نسميك إجلالاً وتكرمة

وقدرك المعتلى عن ذاك يغنينا

٣٤. إذ انفردت وما شوكت فى صفة

فحسبنا الوصف إيضاحاً وتبيينا

٣٥. يا جنة الخلد أبدلنا بسدرتهـا

والكوثر العذب رموقاً وغسلينـا

٣٦. كأننا لم نبت والوصل ثالثنـا

والسعد قد غض من أجفان واشينا

٣٧. إن كان قد عز فى الدنيا اللقاء بكم

فى موقف الحشر نلقاكم ويكفينا

٣٨. سران فى خاطر الظلماء يكتمنـا

حتى يكاد لسان الصبح يفشينـا

٣٩. لا غرو فى أن ذكرنا الحزن حين نهت

عنه النهى وتركنا الصبر ناسينا

٤٠. إنا قرأنا الأسى يوم النوى سوراً

مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينـا

٤١. أما هواك فلم نعدل بمنهلـــه

شرباً وإن كان يروينا فيظمينـا

٤٢. لم نجف أفق جمال أنت كوكبـه

سالين عنه ولم نهجره قالينـا

٤٣. ولا اختياراً تجنبناه عن كثـــب

لكن عدتنا عن كره عوادينـا

٤٤. نأسى عليك إذا حثت مشعشعـة

فينا الشمول وعنانا مغنينـــا

٤٥. لا أكؤس الراح تبدى من شمائلنا

سيما ارتياح ولا الأوتار تلهينـا

٤٦. دومى على العهد ما دمنا محافظة

فالحر من دام إنصافاً كما دينـا

٤٧. فما استعضنا خليلاً منك يحبسنا

ولا استفدنا حبيباً عنك يثنينـا

٤٨. ولو صبا نحونا من علو مطلعة

بدر الدجى لم يكن حاشاك يصبينا

٤٩. أولى وفاء وإن لم تبذلى صلة

فالطيف يقنعنا والذكر يكفينـا

٥٠. وفى الجواب متاع إن شفعت به

بيض الأيادى التى ما زلت تولينا

٥١. عليك منا سلام الله ما بقيت

صبابة بك نخفيها فتخفينا

* * * * *

اللغة والمعانى :

١. **التنائى** : التباعد وضده التدانى ، **التجافي** : المقاطعة.

والمعنى : أنه قد أبدل من القرب بعداً ومن الوصل جفوة ومقاطعة.

٢- **هلا** : أداة تحضيض وتتضمن الحث على الفعل إن دخلت على المضارع ، واللوم على ترك الفعل إن دخلت على الماضى.

حان صبح البين : جاء وقته ، **والبين** :الفراق . **الحين** : بفتح الحاء الموت والهلاك .

الناعى : من يعلن خبر **الوفاة**.

والمعنى : هلا صبحنا الهلاك فى صبيحة يوم الفراق .

٤،٣. **الملبسين** : جمع ملبس ، اسم فاعل من (**ألبس**) وحزناً مفعوله .

انتزاحهم : اقترافهم . **يبلى** : ثلاثياً بمعنى ينفد ، ورباعياً بمعن يهلك .

والمعنى في البيتين : من الذى يبلغ الذين ألبسونا حزناً بسبب انتزاحهم أن الزمان يبكينا الآن بعد ما ماطل يضحكنا أيام الأنس بهم .

٥. **نغص**: يقال غص فلان بالماء أى شرق به لأنه يقف فى حلقه.

والمعن أن الأعداء قد أصابهم الغيظ مما كنا فيه من هناءة ووصال ، فحسدونا ووقع لنا فى الدهر ما أثلج صدورنا .

٧،٦. **انبت** : انقطع.

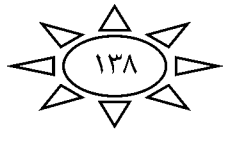

ومعنى البيتين: أننا صرنا إلي حال افترَق لا يُرجى معها التلاقى ، بعد أن كنا مجتمعين لا نخشى التفرق .

٨- **ليت شعرى** : ليتنى أعرف ، **نعتب** : مضارع أعتب : أعطاه العتبى ، أى أرضاه والعتبى هى الرضا .

والمعنى : أنه يخشى أن ينال الأعداء من محبوبته ما حرص هو على ألاّ ينبيلهم إياه أى أنه يخشى انصرافها عن حبه ، وتلك هى الفاجعة الكبرى بالنسبة للمحبين .

٩- يقول فى هذا البيت أنه مقيم على الوفاء ، فالوفاء له عقيدة ودين لا يدين بغيره فى مجال الحب .

١٠- **كاشحاً** : عدوا ، وكل منْ يضمر العداوة كاشح ن كأنه يطوى كشحه عليها .

والمعنى : أنه يدفع عن نفسه ما يقتضى السلو عنه ونسيانه ، لأنه لا يريد أن تقر عين حاسديه ، ولا أن تسر عدواً فيه .

١١- **معنى البيت** : كنا نظن اليأس يسلى فجربناه فإذا هو يزيدنا ولوعا بكم.

١٢- بنتم **وبنا** : بعدتم وبعدنا ، والفعل (بان) بمعنى بمعنى بعد.

الجوانح : الاضلاع واحدتها جانحة وهى الضلع والمراد بالجوانح ما تنطوى عليه وهو القلب - **المآقى** : جمع ماقى وهو مجرى الدمع من العين أو مقدم العين أو مؤخرها وتُطلق المآقى على العيون أيضاً .

والمعنى : وقع البعاد ، فما هدأ القلب من انفطاره ، شوقاً إليكم ولا جفت العيون من البكاء عليكم .

١٣- **الأسى** : الحزن . **التآسى** : التصبر والتعزى .

والمعنى : أن الحزن يكاد يقضى عليه ، لولا أنه يتآسى ويتصبر معللاً النفس

.

١٤،١٥،١٦ - **حالت** : استحالت أى تحولت من حال إلي حال - **مربع اللهو** : ملعبه - **فنون الوصل** : ضروبه وأنواعه - **هصرنا**: ثنينا وعطفنا - شينا: شئنا بتسهيل الهمزة- **قطوفها**: القطوف هى الثمار التى يحين قطفها .

والمعنى : فى الأبيات الثلاثة : كانت لياليا بيضاً ، لما فيها من أنس وألفة ووصال ومسرات ومباهج وتحولت إلي أيام سود إذ ما نرى فى شمسها وضحاها إلاّ ما تصور لنا نفوسنا الحزينة بسبب الهجر والبعاد.

١٧- **عهد السرور** : بدل من (عهدكم) أو بيان له .

والمعنى : أنه يدعوا لهذا العهد عهد السرور بالدوام رطباً ممتلئاً بالحياة .

١٨- **أن طالما** : تقرأ (أن) مفتوحة فهى مصدرية أو مقصورة فهى شرطية .

ومعنى البيت : لا تظنوا بعدكم عنا يغيرنا إذا كان المعهود فى تباعد الأحبة أنه يُضعف المودة بينهما .

١٩- **الأمانى** : جمع أمنية بتشديد الياء وتخفيفها للنظم .

والمعنى : يقسم على بقائه على حبها ، واحتشاد أمانيه فيها وعدم تفكيره فى استحداث هوى غير هواها .

٢٠- **سارق البرق** : المراد منه السحاب يسرى ليلاً .

غادا القصر : بالكرة فى أول النهار. **صرف الهوى** : خالصه .

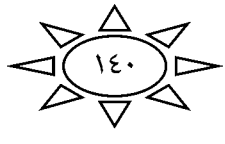

والمعنى : يدعوا السحاب أن يباكر قصرها ويسقيها جزء ما سقته من الود والهوى الخالص .

٢١. **عنى** : يعنى (مزيد) بالتضعيف متعد : شغله وأتعبه .

والمعنى : يريد أن يتعرف : هل شغلت محبوبته بتذكره مثلما شُغل هو بها .

٢٢. **المعنى** : يرسل تحيته إليها مع نسيم الصبا ويذكر ما كان هو فيه من حياة فى قربها .

٢٣. **غب** : الغب فى الزيارة الإقلال منها .

والمعنى : أننا تقاضينا الوصال فى إلحاح ولم نتقاضه غباً فهل ترى الدهر يسعفنا بما نطلبه .

٢٤. **الورى** : الناس.

والمعنى أن محبوبته من بنات الملوك عاشت فى النعمة والرفاهية إذا ما قورنت ببنات جنسها فاقتهن ، فهى مخلوقة من المسك وغيرها من الطين .

٢٥. **ورقاً محضاً** : فضة خالصة . ناصع التبر: الذهب اللامع ويقصد به شعرها .

والمعنى : يقول أن بشرتها بيضاء صافية فى لون الفضة ، وشعرها معقوص على رأسها كتاج من التبر الناصع .

٢٦. **تأود** : تثنى . **أدته توم العقود** : أتعبته ، والتوم جمع تومة وهى حبة من الفضة **أدمته البرئ** : أسالت دمه ، والبرئ : الخلاخل وواحدتها برة، وهى حلقة الخلخال .

والمعنى أن محبوبته مرهفة ناعمة ، لا تقوى على حمل حليها .

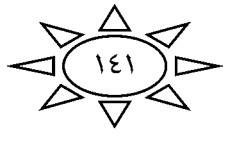

٢٧- **ظئـــراً** : مرضـعاً علـى التشـبيه : **أكلـــه** : أسـتار رقـائق وهـى جمـع كله"**الناموسية** ".

والمعنى أن محبوبته منعمة مخدومة ، تطلع الشمس وهى ما تزال نائمة بل ربما مضى اليوم لا تتعض للشمس لأن لديها من يكفيها شئونها .

٢٨. **تعويذاً** : رقية.

المعنى أن جمال وجهها وضاح وضوح الكواكب الزهر فهو جمال يبهر ناظره ويروعه كأن الكواكب أهديت إليه للزينة والرقية.

٢٩. **المعنى** : يعترف بأنه لا يكافئ محبوبته شرفاً ومجداً وهذا ما يرضى النساء .

٣٠،٣١،٣٢- **أجنت لواحظنا ورداً** : جعلت عيوننا تجنى ورداً جلاه الصبا .

غضا : أظهر الصبا دقيقاً ناعماً. النسرين : نوع من الورد الأبيض له رائحة عطرة تملينا : تمتعنا وتنعمنا. عصارته : نعمته. وشى : نعمى : أى نعمه موشية أى ذات وشى الوشى هو الزينة.

المعنى : يذكر النعيم العظيم الذى كان ينعم به فى حضرتها فيرى منها أمثال الزهور وينعم بالملذات ويخطر من أجل ذلك فى نعمة من العيش يزدهى بها ويختال .

٣٤،٣٣. المعنى أنه لا يسميها إجلالاً لقدرها فلا يظن أحد أنه يصف سواها لأنها متفردة بمزاياها ، لا تشاركها واحدة من بنات جنسها.

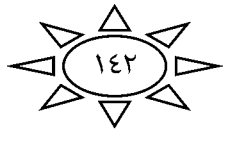

٣٥. "**سدرة المنتهى**" شجرة وارقة الظل فى الجنة.الكوثر : هو نهر فى الجنة أعطيه سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.الزقوم : هو شجرة يطعم منها أهل النار.

الغسلين : هو ماء حار يسيل من جلود أهل النار ولا يجدون غيره ليطفئوا به عطشهم .

والمعنى: أن الشاعر هنا يوازن بين ما كان فيه الآن وما هو فيه الآن حيث كان فى الجنة ونعيمها المقيم ثم صار فى نار وعذاب متجدد.

٣٦. **غض** : أطبق وإسناده إلي السعد فيه استعارة .

المعنى : يتذكر الشاعر ليالي لقى فيها محبوبته ، ولم يشاركهما إلاّ الوصال ، لو صح أن يكون الوصال شريكاً والسعد من فرحته بهما حجب عنهما أعين الرقباء .

٣٧- **المعنى** : أنه يرضى من محبوبته أن تحرمه وصالها إلي يوم الحشر فهو واثق أنه ملاقيها هناك .

٣٨. **المعنى**: أنه يقول : تحول شخصانا إلي سرين ، يطويهما الظلام طول الليل فى خاطره كتماناً لأمرنا.

٣٩-٤٠- **النهى** : جمع (نهية) وكلتاهما بمعنى العقل.

ومعنى البيتين أنه يدعو إلي الصبر ، ونسيان الحزن ولكن صدمة الفراق كانت أعمق أثراً من أن تلبى داعية العقل فأصبح الصبر شيئاً خارجاً عن طوقنا ، نلقنه وندعى إليه.

٤١. **المعنى** : أنه يعيش على حبها فهى رية من الظمأ وإن كان كلما شرب منه تجددت رغبة فيه.

٤٢،٤٣. **سالين** : جمع سال ، اسم فاعل من (سلا) بمعنى نسى وصبر.

قالين: جمع قال اسم فاعل من قلى بمعنى كره وأبغض.

عن كثب : عن قرب ، عدتنا : صرفتنا.العوادى: صروف الزمان وهى جمع عادية.

معنى البيتين : أنه لم يفارقها بإرادته ولم يجفها سلواً ونسياناً وما هجرها كرهاً وقلى ولكنها العوادى التى أرغمته على فراقها.

٤٤،٤٥. **الشمول المشعشعة** : الخمر المشتعلة بالماء .

ومعنى البيتين أنها لا تفارق خياله ولا يصرف ذكراها عنه الشرب والغناء.

٤٦. **دان** : التزم بالأمر.

ومعنى البيت : أنه يقول لها دومى على العهد محافظة ما دمنا محافظين عليه فالحر منْ يلتزم مع منْ يلتزم معه.

٤٨،٤٩. **صبا نحونا** : مال نحونا يصبينا يجعلنا نعشقه .

ومعنى البيتين أنه لم ينصرف عن حبها إلي غيرها وأنه قد استقام على محبتها فأى إنسانة سواها مهما بلغ جمالها وتعاظم لا تلفته عن محبوبته .

٤٩-٥٠-**أولى** : أنعمى.

معنى البيتين : يطلب إليها أن تنعم عليه بالوفاء والوصال فإن لم تقدر على جعل الوصال واقعاً ، فلتجُد بطيفها. ولتذكره ، ويطمع فى أن تجيبه ، ففى جوابها منه عليه يد بيضاء بذكرها.

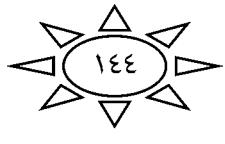

٥١. **صبابة** : هوى. **نخفيها** : نسترها . **تخفينا** : تقضى علينا.

المعنى أنه يختتم القصيدة بتحية السلام ما بقى به هوى لمحبوبته فإنه يكتم أمره ويخفيه وهواه يكاد يهلكه ويقضى عليه .

الموسيقى والألفاظ والأساليب :

١. نظم الشاعر القصيدة من بحر البسيط الذى تفعيلاته مستفعلن فاعلن مرتين فى كل شطر ، والتزم فى التفعيلة الأخيرة خبن العروض حذف الساكن الثانى بحيث تصير دائماً فعلن ، كما التزم التفعيلة الأخيرة من الضرب حذف الساكن الخامس وتسكين الرابع بحيث تصير "فاعل" وإليك البيت الأول على سبيل المثال :

أضحى التنائى بديـ لا من تدانينا

مستتفعلن فاعلن مستفعلن فاعل

وناب عن طيب لقيانا تجافينا

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعل

ويلاحظ أن الشاعر جعل العروض توافق الضرب فى البيت الأول ليجعله مصرعاً .

٢ـ اتخذ الشاعر من حرف النون المفتوحة التى تسبقها ياء ممدودة رويـاً للقصيدة وبهذا الوزن والقافية تمتعت القصيدة بنبرة موسيقية عالية الجرس واضحة الرنين فالبحر البسيط فى صورته التامة من أبحر الشعر الممتدة التى تتيح للشاعر رحابة التعبير وهو من الأبحر التى يكثر

فيها ويحسن التقطيع الداخلى فى البيت الواحد ، فكثيراً ما تجد كل شطر يبدو منقسماً إلي شطرين متناسقين فتزداد موسيقى البيت ثراءاً لاسيما والشاعر يكثر من استخدام أحرف المد وينهى البيت بهذه النون ذات الصوت الأغن بطبعه الذى ينفرد بخروجه دون بقية أصوات الحروف من الخيشوم ، وقد أحيطت النون بمدّين مختلفين ليزيدا البيت تنغيماً وموسيقة أنظر على سبيل المثال جمال التقطيع فى الشطر الأول **والتنغيم في البيت** :

لم نعتقد بعدكم إلاّ الوفاء لكم

رأياً ولم نتقلد غيره دينا

هذا وعلى الرغم من الحساسية التى تثيرها مبالغة الشاعر حين يزعم تقلده الوفاء لصاحبته والدين هنا على أية حال يفهم بالمعنى اللغوى لا بالمعنى الشرعى ، **وانظر إلي قوله في هذا البيت** :

ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا

من لو على البعد حياً كان يحيينا

وقوله :

يا روضة طالما أجنت لواحظنا

وردا جلاه الصبا غضا ونسرينا

وقوله :

إنا قرأنا الأسى يوم النوى سوراً

مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا

ومع حسن التقطيع نجده يستخدم لوناً موسيقياً آخر هو الموازنة فيجعل لكل لفظ فى الشطر الأول مقابلاً له يوازنه فى الشطر الثانى **مثل قوله** :

فانحل ما كان معقوداً بأنفسنا

وانبت ما كان موصولاً بأيدينا

٣- تنتشر فى القصيدة مجموعتان من الألفاظ احداهما مستمدة من المجال الدينى والأخرى مأخوذة من عناصر الطبيعة.فمثلاً نجد من ناحية ألفاظاً **مثل** : نعتقد دينا ، أرواحنا ، أهواؤنا ، القَسَمْ بلفظ الجلالة ، قدر تعويذا ، جنة الخلد ، السدرة الكوثر زموتاً وغسلينا ، قرأنا سورا ، دان ، سلام الله .

ومن ناحية أخرى نطالع ألفاظاً مثل : صبح ، القطاف الدانية ، البرق السارى نسيم الصبا ، الشمس ، الورق المحض ، التبر الناصع ، الغصون ، الورد والنسرين وأفعالاً تتعلق بها مثل السقيا والرى والظمأ والقطف والهصر والجنى .

وقد كان الشاعر حصيفاً فى حرصه على الاستناد إلي إلي هاتين المجموعتين من ألفاظ المجال الدينى وعناصر الطبيعة فى اختيار ألفاظ القصيدة ذات الإيحاء القوى والظلال المؤثرة فى نفوس المتلقين ، فالمصطلحات الدينية تكسب موضوع القصيدة : هالة من القداسة ، وتُشعر بقوة الشحنة العاطفية وصدقها واندماج عناصر الطبيعة فى موضوع القصيدة تؤكد حيوية الموضوع وطبيعته ونقاؤه وانسجامه مع طبيعة الحياة وفطرتها السليمة السوية .

٤- حرص الشاعر أيضاً على حشد الألفاظ المتضادة فى مجموعة من التقابلات ممتدة على طول القصيدة من أول أبياتها إلي آخر بيت فيها .فالثنائى

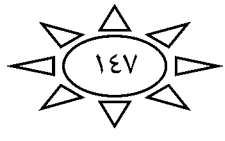

مقابل التدانى والتجافى مقابل طيب اللقاء فى البيت الأول ، وإخفاء الشاعر للصبابة فى البيت الأخير مقابل لإخفائها إياه ، وبين البيتين الأول والأخير نجد أمثال هذا كثير. مثل لا يبلى ، يبلى . يضحكنا ، يبكينا . أنحل معقوداً . أنبت ، موصولاً يخشى تفرقنا ، يرجى تلاقينا . ابتلت جوانحنا ، جفت مآقينا . أيامنا سودا ليالينا بيضاء وهكذا إلي نهاية القصيدة .

وإلي جانب هذا تكثر الألفاظ الدالة على التحول والتغير معظمها أفعال مثل :

"حالت - أضحى - بديلا - ناب - غدت والشاعر باستخدام هذه الألفاظ المتقابلة يفسح المجال لعالمين مختلفين داخل القصيدة ، عالم السعادة بأحلامه وأطيافه وهو عهد الوصال الماضى ، وعالم الشقاء بوحشته وجحيمه وهو عالم الهجر الحاضر ، الأول فى صورة ذكريات يتغنى بها ويتمنى عودتها ويوازن بينها وبين الآخر الماثل أمام عين الشاعر وملء إحساساته ، ثم تأتى ألفاظ التحول والتغير لتشير إلي مأساة الشاعر فى انتقائه بين هذين العالمين المتناقضين .

وهنا نلاحظ أنه عند التعبير عن إلي عالم اللحظة الراهنة يستخدم ألفاظاً مأخوذة من مجال الضوء " أضحى – غدت- سودا- صبح- البين- صبحنا- حين " وفى المقابل يتم التعبير عن عالم الأمس بألفاظ أقل إشراقاً وكان ذلك إيحاء منه بزوال ذلك العالم الذى لم يعد إلاّ وهماً أو حلماً لا تستطيع اليد الإمساك به بخلاف عالم اليوم الشاخص ملء عينى الشاعر ولصق حواسه ، وعلى أية حال فقد امتلأت القصيدة بألوان من الطباق والمقابلة لا رغبة من الشاعر فى

تزيينها بالمحسنات البديعية بقدر ماهى رغبة منه فى تصوير تمزق روحه بين عالم الذكريات السعيدة وعالم الحاضر الجريح .

٥. رأينا فيما سبق حرص الشاعر على توفير القيم الموسيقية العالية بالقصيدة وحرصه على إبراز التناقض بين عالمى الأمس واليوم فيها.والآن نرى أنه قد حاول المزج بين هاتين الغايتين فيستخدم أحياناً ألفاظاً متشابهة فى أصواتها مختلفة فى معانيها.

وهذا التجانس الصوتى مؤكد لقوة موسيقى القصيدة ولأحساس الشاعر الحاد بالتمزق بين عالمى الذكريات والواقع انظر مثلاً الجناس فى " **البين ، الحين** " وفى " **صبيح ، صبح - وفي الحين ، حى** " فى البيت الثانى.

هلا وقد حان صبح البين- صبحنا

حين ، فقام بنا للحين ناعينا

وانظر أيضاً " حيا ويحى " في قوله :

ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا

منْ لو على البعد حيا كان يحيينا

٦. ويحرص الشاعر أيضاً فى الوصف على المبالغة والبلوغ بالأشياء إلي غايتها فلا توسّط عنده ولا مقاربة ولا تردد فى الأمور ، دائماً نهائية مقطوع بها ومحسومة فلا بديل عن عودة الوصال سوى تمنى الموت ، ولم تكن أيام

الوصال إلاّ جنة يعيشها وليس شيئاً شبيهاً بها أو قريباً منها ، ولم يكن موردها إلاّ الكوثر نفسه ، ولا دوحتها السدرة التى تذكر بسدرة المنتهى ، وهكذا يصور الشاعر عن طريق فن المبالغة قوة احساساته واحتدام عواطفه وانفعالاته مما يُسهّل عليه التأثير فى الملتقى وشحن وجدانه بما يشبه هذه الاحساسات والانفعالات ويجعل الملتقى مفتوناً بالقصيدة بل أسيراً لها .

٧ـ وامتلأت القصيدة بالصور البيانية النابعة من خيال الشاعر الخصب المتدفق بالتشبيهات والاستعارات والمجازات والكنايات التى تجسد المعنوى وتُشخّص المحسوس الجامد ، فتبث فيه حياة وروحاً من روح الشاعر ومن وجدانه . فالتجافى ينوب عن طيب اللقيا ، والحزن ثوب يلبسه الشاعر أبد الدهر والوصل شجرة ذات أغصان يهصرها (١٦) وهو ومحبوبته التى كانت ريحانة لروحه (١٧) وكانت بشرتها فى بياض الفضة الخالصة وشعرها تاجاً من ناصع التبر (٢٥) شبه جمال وجهها بجمال الكواكب الزهر (٢٨) يستعير زقوم جهنم وغسلينا لشقائه الواقع وسدرة الجنة وكوثرها لنعيمه الزائل (٣٥) ويُشخّص الوصل ويجعله ثالثهما ويُشخّص السعد ليكون حارسهما الأمين (٣٦) .

ونجد أنه استخدم الكناية فى بعض الأبيات حين يتصور حساده وقد استجيبت دعوتهم فانحل ما بينه وبين محبوبته وانقطع ما كان يصل بينهما (٦،٥) وينعت محبوبته بأنها ربيبة ملك من عنصر طيب وبأن العقود والخلاخيل تُثقلها وتُدميها كناية عن أنها مُنْعَمة مخدومة لا ترى الشمس إلاّ فى أكلتها

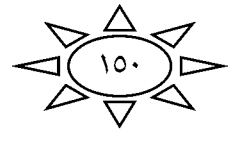

(٢٧،٢٤) ويجعل من مودته لمحبوبته سبباً فى أن يكون كفؤاً لها (٢٩) يذكر نعيمه فى حضرة محبوبته فيذكر حيلة مزهرة بالنعمة واللذات (٣٢،٣١) يرفع من قدرها فلا يُسميها باسمها إجلالاً لها ، فحسبها الوصف إيضاحاً وتبييناً ؛ لأنها متوحدة فى صفاتها منفردة بمزاياها ، وربما أراد بذلك ألاّ يُشهّر بها مهما جدّ من الأحداث (٣٤،٣٣) .

٨. استخدم الشاعر فى التعبير عن نفسه وعن صاحبته ضمير الجمع وليس ذلك على الأغلب مراعاة لكون ولاّدة ابنة خليفة ، وإنما يستوحى الشاعر من ضمير الجمع للمتكلم والمخاطب الأشعار بقيمة الرابطة العاطفية التى يُصوّرها وإحاطة أبطال قصتها بهالة من الإجلال والمهابة .

٩- وقريب من هذه المعانى حرص الشاعر على عدم تسمية صاحبته مجاراة لتقاليد التحفظ والاحتشام العربية التى يمثلها الشاعر المخزومى والأميرة الأموية **في قوله** :

لسنا نسميك ، إجلالاً وتكرمـــة

وقدرك المعتلى عن ذاك يغنينا

إذا انفردت وما شُوركت فى صفة

فحسبنا الوصف إيضاحاً وتبيينا

وضماناً لهذه الحالة من الإجلال والتكرمة ورعاية للتقاليد العربية، يحرص الشاعر على تحاشى الصور الحسية لعهد الوصل ، حتى لا يكاد يختلف كثيراً عن صورة الوصل فى الغزل العذرى خلافاً للشائع عن حال المحبين فى الأندلس

فى القرن الخامس ولما يشيع عن أخبار تلك الأميرة الشاعرة ، ولا شك أن هذا النموذج من التصوير العاطفى كان من أهم أسباب نجاح القصيدة وذيوعها.

١٠- تبلغ القصيدة واحداً وخمسين بيتاً فهى ليست بالقصيرة ولا المتوسطة فى عُرف الشعر القديم ومع هذا لا تتجاوز أفكارها ثلاثة أو أربعة عناصر على الأكثر وكلها متوقعة فى مثل هذا المقام ، ومترددة باستفاضة على ألسنة الشعراء ، فالشاعر يبدأ القصيدة بتصوير ما آلت إليه علاقته بمحبوبته من خصومة وجفاء ، بعدما كانت عبيه من تدان وطيب لقيا ، ويسترسل فى تصوير شقائه بالهجر بعد تنعمه بالوصال ، ويتضرع إلي معشوقته أن تدوم على العهد وأن توليه الوفاء ، وفى مثل هذا المقام العاطفى لا يتطلب فى الشعر الغنائى ترابطاً محكماً بين الأفكار وترتيباً دقيقاً لعناصرها ، ومراعاة لمتطلبات الوحدة العضوية التى تُفرض على الشاعر أن يكون لكل جزء أو بيت من قصيدته دور حاسم لا يستغنى عنه ولا يمكن تغيير موضعه وإلاّ اختل الهمل الأدبى وانهار بنيانه .

فى هذه القصيدة- كما فى أغلب الشعر الغنائى استرسال جر وتداعى للخواطر والأفكار بعيداً عن السببية المنطقية المُحكمة ، فالفكرة الواحدة تتكرر فى عدة صور وتتداخل معها فكرة أخرى بدون تخطيط مُسبق أو نسق محدد يعمد إليه الشاعر.

ولعل التكرار المتعمد للأفكار الساذجة القليلة التى تتضمنها القصيدة كان سراً آخر من أسرار نجاحها إذ يؤدى إلي إلحاح الشاعر على معان معينة ما يلبث أن يملأ بها وجدان المتلقى بفاعلية الإلحاح والضغط العاطفى خصوصاً إذا كانت

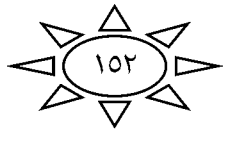

هذه المعانى تضرب على أوتار حساسة فى ذهن المتلقى ، فالقصيدة تعبر عن تجربة إنسانية ما يكاد أحد ينجو منها أو يأمن الوقوع فيها .

إنها تجربة تبدل الحال والتغيير الخارج عن إرادة المرء والذى يجلب معه فقدان المتعة أو ضياع مصلحة أو نحو ذلك ، والإلحاح على تصوير هذا التبدل وشقاء الشاعر به وعجزه عن مواجهته مما يستدر إشفاق المتلقى وتعاطفه ، ولا تخلو أفكار القصيدة المتواضعة من من بعض التناقض ، غير أنه ليس تناقضاً قبيحاً يكشف عن فساد فى فكر الشاعر ، وإنما هو تناقض متوقع تفرضه طبيعة التجربة ، وارتفاع درجة التوتر العاطفى المصاحب لها ، فالشاعر فى الأبيات الأولى من القصيدة يتكلم عن اليأس ويعد نفسه قد يأس وإن لم يستفد راحة اليائس

في قوله :

كنا نرى اليأس تسلينا عوارضه

وقد يأسنا فما لليأس يغرينا

بينما هو ما يزال فى أواخر القصيدة متعلقاً بالأمل فى أن تدوم على العهد وأن تمنحه الوفاء ، مثل هذا التناقض الخفيف يُشعر القارئ والسامع بالتصاق أبيات القصيدة بتجربة الشاعر بكل وقائعها المختلفة المتنوعة بين" **الجزع والصبر واليأس والأمل** " والتى لا تكاد تقر على حال من الأحوال .

* * * * *

سينيته في الشكوى :

وقد بعث من سجنه هذه السينية إلي صديق له يُدعى أبا حفص ابن برد يشتكى إليه ويسأله دوام الوداد ، **وفيما يلى عرض لهذه القصيدة** :

١. ما على ظنى بـــاس
يجرح الدهر وياســـو

٢. ربما أشرف بالمـــر
ء على الآمال بـــاس

٣. ولقد يُنجيك إغفـــا
ل ويرديك احتـــراس

٤. والمحاذير سهـــام
والمقابر قيـــاس

٥. ولكم أجدى قعـــود
ولكم أكدى التمـــاس

٦. وكذا الدهر - إذا مـــا
عز ناس وذل نـــاس

٧. وبنو الأيام أخيـــا
ف : سراة وخمـــاس

٨. تلبس الدنيا ولكـــن
متعة ذاك اللبـــاس

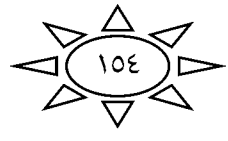

٩. يا أبا حفص . وما ســا

واك فى فهم إيـــاس

١٠. من سـنا رأيك لى . فى

غف الخطب . اقتبـــاس

١١. ويدادى لك نـــص

لم يخالفه قيـــاس

١٢. أنا حيران ، وللأمـــر

وضوح والتبـــاس

١٣. ما ترى فى معشر ، حـا

دواعن العهد وخاســوا

١٤. ورأونى سامريـــا

يتقى منه المســـاس

١٥. أذؤب هامت بلحمـــى

فانتهاش وانتهـــاس

١٦. كلهم يسأل عن حـــا

لى وللذئب اعتســـاس

١٧. إن قسا الدهر فللمـــا

ء من الصخر اتبجـــاس

١٨. ولئن أمسيت محبـــو

سا فللغيث اختبـــاس

١٩. بلبد الورد المسبنتنـى

وله بعد افتـــراس

٢٠. فتأمل ، كيف يغشـى

مقلة المجد النعـــاس

٢١. ويفت المسك فى التـر

ب فيوطأ ويُـــداس

٢٢. لا يكن عهـدك وردا

إن عهـــدى لك آس

٢٣. وأدر ذكرى كأســا

ما امتطت كفك كـــاس

٢٤. واغتنم صفو الليإلي

إنما العيش اختـــلاس

٢٥. وعسى أن يسمح الدهـر

فقد طال الشمـــاس

* * * * * * *

١. **الباس** : هو البأس بإبدال الهمزة ألفاً الشدة والمكروه ، **يأسو** : يداوى.

المعنى : لا لوم على ظنى وفكرى أن توقعت أمراً وجاءت المقادير على خلافه وسأظل أتوقع الخير ، فالدهر الذى يجرح هو الذى يداوى الجراح .

٢. **المعنى** : وربما أفضى اليأس بالمرء إذا بلغ غايته إلي انبعاث الأمل من جديد ولقد ضاقت بى واستحكمت حلقاتها حتى ما أظن إلاّ أن الفرج قريب .

٣. **الإغفال** : الغفلة - بردى يهلك .

المعنى : أن الأمور لا تأتى دائماً وفقاً لمنطق ظاهر وأسباب واضحة فكثيراً ما يهلك المرء رغم احترَسه وكثيراً ما ينجو رغم غفلته فلا ينجى حذر من قدر .

٤. **قياس** : أقواس جمع قوس فالشاعر هنا يجعل الأمور المحظورة المخوف منها كأنها سهام مصوبة إلي المرء وما صوبها إليه إلاّ مقدور، أى ما كُتب إليه.

٥. **أجدى** : نفع ، أكدى : أضر.

المعنى : تكرار المعنى البيت الثالث.

٦. يقرر الشاعر أن عادة الدهر تبديل أحوال الناس وتغيرها. فيعز أقوام ويذل آخرون.

٧. **أخياف** : مختلفون ، **سراة** : **جمع سرى** : العزيز الكريم فى قومه .

٨. **متعة** : متعة سريعة الزوال.

المعنى : نحن نتمتع بالدنيا إلي حين فسرعان ما تنزع عنا كما ينزع الثوب .

٩. **إياس** : هو ابن معاوية وهو قاض فى عهد عمر بن عبدالعزيز وقد اشتهر بذكاءه ويضرب به المثل فى الفطنة والذكاء.

١٠- **سنا** : ضوء . **غسق الخطب** : ظلمته.

المعنى : فهو فى ظلمة الأحداث الأليمة المربكة لعقله يهتدى برأى أبى حفص ويستضئ بفكره المنير.

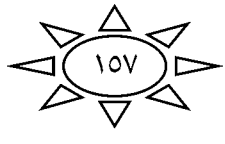

١١- **النص** : من الكلام ما له اعتبار ويؤخذ بحقائقه وإذا أطلق قصد به كتاب الله وسنة نبيه- صلى الله عليه وسلم - **القياس** : إلحاق قضية بأخرى فى حكم تناسب وتشابه بينهما .

المعنى : ودادى لك واضح لا لبس فيه ولا ريب ، وعدم مخالفة القياس للنص كناية عن وضوح الأمر وموافقته لطبائع الأشياء ولحكم العقل السليم .

١٢- **الالتباس** : عكس الوضوح وهنا يبين حالته من الحيرة من انقلاب أبى الحزم عليه وإهانته وسجنه دون وجه حق.

١٣- **حالوا** : تغيروا ونكثوا عهدكم وكذا خاسوا والمقصود بالمعشر هنا أبو الحزم بن جهور وحاشيته ومن تابعهم من أصدقاء الشاعر الذين تنكروا له فى محنته وانقلبوا ضده .

١٤- **السامرى** : هو موسى السامرى صاحب الفتنة الذى جمع ذهب بنى إسرائيل وحليهم وصنع منها عجلاً جسداً له خوار ودعاهم إلي عبادته من دون الله . فى غياب موسى الكليم عليه السلام ، فلما رجع النبى وأعاد القوم إلي رشدهم حكم على السامرى بألاّ يكلمه أحد من بنى إسرائيل ولا يعاملوه ولا يماسوه، **قال** : فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس ، كما فى سورة طه من القرآن الكريم .

فالشاعر هنا يشبه موقف آل جهور وأشياعهم منه بموقف بنى إسرائيل من السامرى إبان عقوبته.

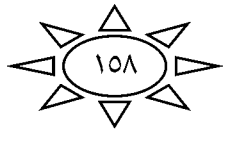

١٥- **الانتهاش والانتهاس** : الأول هو أخذ الأضراس والآخر أخذ بأطراف الأسنان . **والمعنى** : أن الناس بالنسبة للشاعر صاروا كالذئاب تنهش لحمه غيبة وبهتاناً .

١٦- **الاعتساس** : التجول بالليل فى خفية وتلطف طلباً للصيد.

المعنى : يشبه الشاعر سؤال الناس عن حاله باعتساس من الذئاب تحوم حول الفريسة متربصة بها منتظرة الفرصة المناسبة للانقضاض عليها.

١٧- **الانبجاس** : تفجر الماء من الصخر.

المعنى : أنه مهما قست الدنيا عليه فهو يدرك أن الفرج ليس مستبعداً فالصخر الأصم قد يتفجر منه الماء ، وكذلك الشدة العصيبة قد ينبعث منها الفرج والسمو.

١٨- **احتباس الغيث** : امتناع هطوله رغم مرور الرياح المحملة بالسحب وذلك وإن كان يقع أحياناً فإنه لا يدوم طويلاً.

١٩- **الورد السبنتى : الأسد القوى** : سمى ورداً لاحمرار بشرته يلبد : بفتح الباء **وضمها** : يكمن.

المعنى : يشبه الشاعر نفسه بالأسد الذى يكمن فى عرينه حيناً ويصول مفترساً حيناً آخر.

فهو فى سجنه كالأسد فى عرينه ما يلبث أن يعود إلي حركته ونشاطه.

٢٠- **يُهوّن** الشاعر الأمر على نفسه ، فيشبه حاله بحال المجد وقد غشى النعاس مقلته وأخذته سنة من النوم ما يلبث أن يصحو بعدها ويستفيق ويعود إلي سالف عهده.

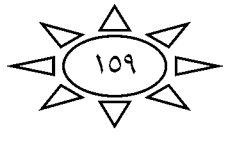

٢١. **فت المسك** : سحقه وهو ضروري لتنبعث منه عطوره الطيبة ولكن هذا قد يؤدى إلي أن تطأه الأقدام وهو الثمين الطيب.

المعنى : كأن الشاعر يرثى لحاله ويشبه نفسه به ويعود إلي تأملاته فى أول القصيدة فى البيتين (٣،٥) .

٢٢- **الورد والاس** : نوعان من الزهور الأول اشتهر بقصر عمره بخلاف الثانى.

المعنى : الشاعر يحذر صديقه من أن يكون عهد الود عنده قصير العمر قصر عمر الورد ويُنوّه بمحافظته على عهد الصداقة بينهما .

٢٣. **ما** : زمنية مصدرية.

المعنى : يدعو الشاعر صاحبه أن يبقى على ذكره ما دام مبقياً على مجالس السمر التى طالما جمعت بينهما .

٢٤. **الاختلاس**: أخذ الشيء فى سرعة وخفية حذراً من الرقباء.

المعنى : ينصح أبا حفص أن يغتنم ما يسنح له لحظات خالية من المشكلات فإن صروف الدهر تتربص بالإنسان حتى لا يبقى مجال لاغتنام لذة عيشه إلاّ فى خيفة وحذر.

٢٥- **الشماس** : التمرد والاستعصاء . سماح الدهر كناية عن زوال المحنة ،

المعنى : فهو هنا يرتجى أن تزول محنته فيفك أسره إلي سابق سعادته ومجده فقد طال احتماله للألم والشقاء.

خلافاً لما فعلنا فى تحليل القصيدة السابقة سنجرب مع هذه القصيدة منهجاً آخر أكثر شيوعاً وهو يبدأ يتلمس أفكار القصيدة ويستنبط منها

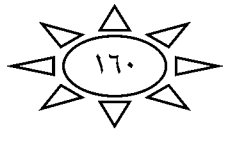

العاطفة التى انبعثت عنها التجربة الشعرية ، وإذا تعرف على نوعية العاطفة أو الربط بينها وبين الصور والأخيلة التى أنتجتها وأثارتها فى ذهن الشاعر والألفاظ التى تدور فى ذلك الفلك وتشع إيحاءات وظلالاً متناسبة مع طبيعة عاطفة الشاعر وأفكاره وتنتهى بمحاولة اكتشاف أوجه الارتباط بين هذه العناصر"**الأفكار - العاطفة - الصور الألفاظ** " وبين موسيقى القصيدة المتمثلة فى وزنها وقافيتها .

١- تتضمن القصيدة ثلاثة أفكار أساسية يمكن بموجبها تقسيم القصيدة إلي ثلاثة مقاطع .

الفكرة الأولى : هى تبرير الشاعر لسجنه بأنه ضربة حظ عاسر وتنكر من الدهر الذى يُنجى ويُردى ويُجدى ويُكدى ، ويعز ويذل بما لا يتناسب مع عمل المرء وسعيه فلا بأس على ظن الشاعر أو عقله وفكره ولا لوم ، فلم فلم يتسبب هو فيما انتهى إليه مصيره حتى يُعاتب أو يُلام ، وقد استغرق عرض هذه الأفكار الأبيات الثمانية الأولى بحيث بدت مقدمة لموضوع القصيدة الرئيسى .

أما الفكرة الثانية: فهى تنديد الشاعر بأصدقائه الذين تخلوا عنه وغدروا به ، واستغلوا محنته ، فمضوا يسيئون إليه ، ويتحينون فرصة للانقضاض عليه ، وقد استغرقت هذه الفكرة خمسة أبيات من البيت الثانى عشر إلي البيت السادس عشر ويلاحظ أن الشاعر مهد لها بمدح مناسب إلي المخاطب أبا حفص، إذ تركز حول ذكائه وقوة رأيه وبصيرته ونَوَّه بودّه له من البيت التاسع إلي البيت الحادى عشر.

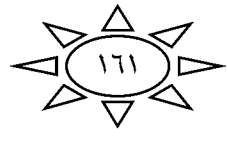

الفكرة الثالثة: وقد دارت هذه الفكرة حول كون السجن مجرد مرحلة عارضة ما تلبث أنْ تزول مثل كمون الأسد ، وانحباس الغيث ونعاس مقلة المجد. انظر الأبيات من البيت السابع عشر إلي البيت الواحد والعشرين .

ثم يُنهى الشاعر القصيدة بما يُضفى عليها شكل الرسالة الإخوانية فيدعو صديقه إلي صيانة العهد ودوام الود ، وينصحه باغتنام صفو الليالي ولذات العيش ، ويرجو أن يقترب سماح الزمان الذى طال شماسه .

ويلاحظ على هذه الأفكار تعددها أو بتعبير آخر تعدد أغراض القصيدة من حكمة واعتذار وإخوانيات وذلك أمر متوقع فى الشعر القديم ، ورغم تعدد الأغراض فهى متناسبة متقاربة يكمل بعضها بعضاً بما يجعلها تتمتع بالوحدة الفنية ، بيد أن بعض هذه الأغراض أو الأفكار يحتاج إلي شيء من المراجعة ، أما الفكرة الأولى المتعلقة بتقلب صروف الدهر وأحوال الناس فهى فكرة شائعة بين الشعراء من حقها إذا استعارها شاعر متأخر أن يستوفيها أو يبرزها فى ثوب جديد وصورة طريفة ، وهنا نراها عُرضت أقرب إلي التجريد المباشر منها إلي التصوير الفنى مع سذاجة وتكرار فى بعض المعانى كما فى البيتين السادس والسابع.

وكذا الدهر، إذا ما		عز ناس ذل ناس
وبنو الأيام أخيا		ف : سراة وخساس

فالشاعر يفاجئنا بالربط بين عز ناس وذل آخرين دون مبرر ، ثم يقرر حقيقة مفردة سلفاً لا تحتاج إلي تنويه منه وهى أن الناس مختلفون سراتهم وخساسهم ، فأى جديد جاء به ؟

على أن الشاعر يحسن إتمام فكرته - بتعزية نفسه بأن الدنيا فى النهاية متعة فانية وعرض زائل ، فلا تستحق أن يحزن على حظه فيها ، كما بدأ بأن الأحداث لا تستحق أن يعاتب نفسه عليها.

ومما يلاحظ أن ابن زيدون كان مقتصداً فى التنديد بالذين غدروا به وأساءوا إليه حتى ما يكاد يتضح إن كان المقصود بهجائه الذين تسببوا فى سجنه أم الذين تنكروا له بعد سجنه ، وهذا القصد أو التحفظ مردّه إلي كون الشاعر سياسياً علّمته خبرته بشئون السياسة فى عصره وفى كل عصر : أنّ عدو اليوم الذى كان صديق الأمس ما يلبث أن يرجع غداً صديقاً إذا ما تغيرت الأحوال ، فلا داعى للإسهاب فى هجائه ، فمن يدرى؟ أما الإسهاب فقد خصّ به الفكرة الثالثة حين يعتذر عن محنة أمام نفسه ، ويبدى اعتزازه ورباطة جأشه وثقته فى زوال المحنة ، وهو محق فى ذلك ، فالشاعر ينظم القصيدة ويتفنن فى إبداعها إرضاءاً لنفسه أولاً وتثبيتاً لها ، وبثاً للثقة والتفاؤل فى أركانها ، ولذلك تكررت الصور البيانية المجسدة لهذه الفكرة.

٢- وإذا كانت أفكار الشاعر بين تأمل فى تقلبات الدهر ، وتأسّف على غدر الإخوان وتجميع لشتات النفس ، فلا شك أن مشاعر الحزن والتحسر والرغبة فى التعلق بالأمل والحياة والصديق تمثل العاطفة التى انبعثت عنها التجربة الشعرية والتى تمثلت فى القصيدة ، غير أن تأملات الشاعر الحزينة فى المقطعين الأول والثانى لم تنتج غير القليل من الصور من أهمها : تشبيهه لنفسه بالسامرى فى تجنب الناس

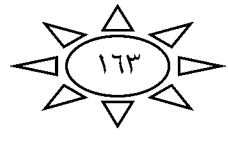

له وتحاشيهم مخاطبته ، وتشبيهه للغادرين بالذئاب هامت بلحمه انتهاشاً وانتهاساً ، وهذه الصور اعتمدت على تصوير الغيبة فى القرآن الكريم :-

" ...وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ...."

(الحجرات :١٢)

وقد زادها حسناً امتدادها فى البيت الثانى ، فإذا كان تشبيهه الغادر بالذئب تشبيهاً مكرراً بكثرة ، فقد صار طريفاً حين نرى الذئب يحوم حول فريسته يتحين فرصة الانقضاض عليها.

أذؤب هامت بلحمى		فانتهاش وانتهاس
كلهم يسال عن حا		لى والذئب اعتساس

وتكثر الصور فى المقطع الثالث تعبيراً عن إلحاح الشاعر على تثبيت نفسه وتشجيعاً وتصوير حاله فى أكرم صور ممكنة ، وهذا موقف من المواقف التى تُختبر فيها براعة الشعراء ، فسجنه لا يشينه ولايقضى على طموحه فهو مثل الغيث ينجبس حيناً ثم يرجع فينهمر انهماراً ، وكالليث يستجم حينا ويربض فى عرينه ثم يعود إلي دأبه فى السطوة والافتراس ، وأيام سجنه مهما طالت ليست سوى لحظات غشى فيها النعاس أعين المجد وهذه كلها صور بارعة يمعبرة بقوة عن رغبة الشاعر المُلحّة فى تطمين نفسه .

ويغالب الشاعر الجزع حيناً ويغلبه الجزع حيناً فيصور نفسه فى هذه الصور القاتمة

ويفت المسك فى الترب فيطأ ويُداس ، فمواهبه لا تُقدّر ، ومكانته لا تُحترم ، فكأنه مسك فُتّت ورُمِى به على الترَب ، ويُمتهن على الرغم من قيمته وفضله .

وإذا كان خيال الشاعر بارعاً فى اختيار الصور البيانية المعبرة عن تماسكه وتفاؤله وحزنه فإن فى القصيدة صوراً تكاد تجزم بأنها لم يوردها إلاّ حرف الروى فإذا كانت مبنية على السين المضمومة المسبوقة بألف فلدى الشاعر كلمة أس كادت القصيدة تنتهى ولم يستخدمها بعد ، فاستوحى من زهرة الآس فكرة طول العمر وإن لم تشتهر بذلك شهرة إياس بن معاوية بذكائه وليقرنها بزهرة الورد القصيرة العمر بالنسبة إلي صاحبها ويتخذ منها وسيلة للتشبيه والموازنة بين عهده وعهد صديقه.

لا يكـــــن عهـــــدك وردا		إن عهـــــدى لـــــك أس

فتأمل كيف تشارك القافية فى صنع القصيدة وتغرى الشاعر بالتشبيهات الغريبة.

٣. وفى مجال الأفكار المجردة والتعبير المباشر يكثر استخدام المصادر وأسماء المعانى وهذا هو الطابع المميز لمنظومة ألفاظ القصيدة :

" **بأس ، يأس ، إغفال ، احتراس قعود ، التماس ، اقتباس ، قياس ،نص وضوح ، التباس ، المساس ، انتهاش انتهاس ، اعتساس ، انبجاس احتباس ، افتراس ، اختلاس ، صفو ، شماس** " ولاشك أن لحرف الروى أثر إلي جانب الطابع التجريدى للحكمة والتأملات فى كثرة هذه المصادر فى القصيدة ، واستعمال المصادر يفيد الإيجاز والتركيز والتنعيم ، وتأمل دورها **في مثل قوله** :

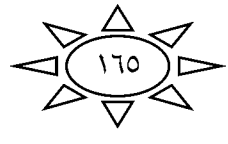

أذؤب هامـــــت بلحمـــــى		فانتهـــــاش وانتهـــــاس

نجد أن استخدام المصدر ركز الصورة وأوجز التعبير عنها فى أقل عدد ممكن من اللفاظ **وفي قوله** :

ولكـــــم أجـــــدى قعـــــود		ولكـــــم أكـــــدى التمـــــاس

تجد كلمتى قعود والتماس ذواتى دلالة عامة لا ترتبط بأى شخص أو مكان أو زمان أو نوع معين من القعود والالتماس ، وهذا التعميم مراد من الشاعر إلي جانب الإيجاز والتركيز وبذلك تُصاغ الحكمة حين تدل فى أوجز لفظ على أكثر المعانى شمولاً .

وقد اختار الشاعر ألفاظه بعناية ، وهى على سهولتها صحيحة فصيحة دقيقة التعبير لا تستغرب منها غير كلمة أو كلمتين مثل : أخياف فى (٧) ، والسبنتى فى (١٩) وهما على غرابتهما واضحتا المعنى من سياق الكلام دالتان فى الوقت نفسه على سعة معجم ابن زيدون ولا تبقى موضعاً للشك غير كلمة إغفال فى البيت فى البيت (٣) فهل الإغفال هو المقابل للاحترَس أم الغفلة؟

٤ـ اشتهر الأندلسيون - وابن زيدون فى مقدمتهم - بأناقة التعبير وإشراق الديباجة وحلاوة وقوع العبارة فى السمع مع وضوحها وانسيابها فى بساطة ويسر ، فإن قلنا ذلك عن صياغة هذه القصيدة لم نأت بجديد ، غير أن مما يهمنا الإشارة إليه فى مجال الصياغة أمور منها : -

أولاً : رشاقة قصار الجمل وبساطة تركيبها وتأمل التركيب فى شطرى المطلع وفى الأبيات الثالث والرابع والخامس وغيرها.

ثانياً : براعة الشاعر فى تصوير الأفكار وكأنه يصور تصاعد التفاعل الداخلى فى وجدانه أو تصاعد التوتر العاطفى فى القصيدة **على سبيل المثال** :

يبدأ البيت الثانى بكلمة "**ربما**" وهى توحى بالشك والحتمال ، ويبدأ الثالث بعبارة "**ولقد**" وهى تفيد التأكيد ، ويبدأ البيت الخامس بعبارة "**ولكم**" وهى تفيد التأكيد "**باللام**" والكثرة "**بكم**" ، وانظر التصاعد فى عرض الشاعر لمشكلته التى يريد من أبى حفص صديقه تفسيراً لها .

فهو أولاً يبدأ بمدح ذكاء مخاطبة فى البيت (٩) ثم يلمح إلي استغاثته به فى لإيضاح ما غمض من أمور فى البيت (١٠) ثم يفصح عن خبرته فى البيت (١٢) ثم يخبر عن تغير الأصدقاء فى البيت (١٣) ثم يشبههم بالذئاب فى البيت (١٥) ثم يعمم ويؤكد فى البيت رقم (١٦) .

وفى مجال اعتذاره عن نفسه يبدأ بصورة مقتبسة من القرآن الكريم ليس له فى ابتكارها فضل .

إن قســـا الـــدهر فللمـــاء		مـــن الصـــخر انبجـــاس

ويتبع هذه الصورة بتشبيهه نفسه بالغيث المحتبس فى البيت التإلي ، ثم يتمها بتشبيه نفسه بالورد البنتى وله فى الصورة الأخيرة فضل الابتكار وفى تشبيهه بالأسد إيحاء بالقوة فى مجال الاحتياج إليها فهو أقوى من تشبيهه بالغيث الموحى بالكرم الذى لا مجال له فى السياق.

٥- نظم ابن زيدون من مجزوء الرمل وجعل قافيتها السين المضمومة بعد مد بالألف فإذا كان المد من المقروء من الشعراء باستفاضة فقد ميّزت القافية القصيدة وتفرد واضحين ، ومن خلال الوزن والقافية

وأسماء المعانى والمصادر انبعثت من القصيدة أنغام رشيقة متأنية توحى بتقييد حركة الشاعر فى سجنه وبتأملاته الهادئة يراجع ما مضى من حياته ويتأملها فى أناة السجين المتفرغ للتأملات وللبحث عن ألفاظ مناسبة لهذه القافية نادرة الاستعمال .

ثانياً : مِدحة نبوية للشاعر الأندلسى إبراهيم بن سهل :

كلمة عن الشاعر :

هو إبراهيم بن سهل الإسرائيلى الأندلسى، لم يكن عربياً ؛ لأن آباءه من اليهود الذين نزحوا إلي الأندلس من زمن بعيد ، ولكنه برع فى العربية وبرز فى آدابها .

وُلد فى أشبيلية فى سنة ٦٠٩هـ وعاش فى النصف الأول من القرن السابع ، أى فى الوقت الذى يعتبر آخر عصور العرب فى الأندلس ، لكن الشعر ظل على حاله من الرقى فالناس كما هم يُمجّدون الشعراء ويُكبّرونهم ، واللغة عزيزة ، والأدب فتى ، والشعر تام ناهض .

فى هذه البيئة نشأ ابن سهل ، لكنه اتجه إلي عاطفته ووجد أنه يستلهمها الشعر فألهمتاه شعراً رقيقاً معظمه فى الغزل فى أسلوب بديع وروح خفيف ، وافتنان ظريف وأسلوب رائع ، ومعان شائقة ، **حتى قال بعضهم لما عرف ابن سهل :**

(عاد الدر إلي وطنه) ، وسُئل بعض المغاربة عن السر فى رقة شعر ابن سهل **فقال :**

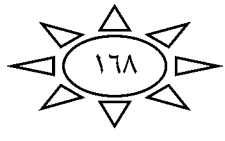

اجتمع فيه ذلان : ذل العشق وذل اليهودية .

وقال آخر عنه :

" كان من الأدباء الأذكياء الشعراء ، وكان يهودياً فأسلم ، وقرأ القرآن "

وقال أثير الدين أبو حيان :

" ابن سهل أديب ماهر ، دوّن شعره في مجلد ، وكان يهودياً فأسلم وله قصيدة مدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يقرأ مع المسلمين ويخاطبهم .

وقال عنه الدكتور أحمد ضيف بعد أن قدم الكثير من سيرته : هذه صورة ابن سهل وهي صورة شاعر وصاف يجيد الوصف وغازل يجيد الغزل ووجداني لا يخرج عن دائرة وجدانه ، ومصور بارع لما يرى ويسمع ، قليل الآراء ، قاصر الخيال ، لكنه مبدع في الأسلوب ، متفنن في الكلام ، لا يشعر الإنسان بأدنى ملل في قراءة كلامه وهو مع ذلك خفيف الروح ، مطرب معجب وكفى بذلك دليلاً على جمال قوله ونصيبه في الافتنان .

ويكاد يكون معدوم المدح ، ودرة مدائحه هي القصيدة العينية التي يمدح بها الرسول صلى الله عليه وسلم والتي سنقدمها ، ولم يرد في شعره شيء من الهجاء ، ومع ذلك فأخلاقه بعيدة عن النفاق وعن السلاطة ، وإنما يتسم بدماثة الأديب ووداعة الشاعر الظريف ، ورقة العاشق .

القصيـــــدة

١. تُنازِعني الآمال كهلاً ويافعاً

ويُسعدني التَّعليل لو كان نافعاً

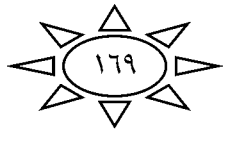

٢. وما أعتق العَلْيا سوى مُفْرِدٍ غدا

لِهوْلِ الفَلا والشَّوْقِ والنُّوق رابِعا

٣. رَأى نزعات الحقّ قد نَزَعتْ به

فساعد فى اللّه النَّوى والنَّوازعا

٤. وركبٍ دعتْهُم نحو يثرب نِيَّةٌ

فما وجّدَتْ إلاَّ مُطِيعاً وسامعا

---

١. **اليافع**: الطفل الناشئ .

والكهل: الذى جاوز الثلاثين وخطه الشيب.

٢. **نزعت به** : ذهبت به .

النوى : البعد .

فساعد في الله : تحمل فى سبيل اللّه . النوازع : جمع نازع وهو الطريق فى الجبل أو هو المشتاق.

نزعات الحق: الحنين إلي الحق.

٤. **رَكْب** : جمع راكب مثل صَحْب وصاحب والركْب هم أصحاب الإبل فى السفر دون دون الدواب وهم العشرة فما فوقها .

٥. يُسابِقْ وَحْدُ العِيسِ ما اسْوَدَّ منهم

فَيُفْنون بالشَّوْقِ المدى والمَدَامِعَا

٦. سقى دمعُهم غَرْس الأَسَى فى ثرَى الجَوَى

فأنبت أزهار الشُّجونِ الفَوَاقِعَا

٧. فذاقوا لبان الصِّدق مَحْضاً لِعِزِّهم

وحرَّم تفْريطى علىَّ المَرَاضِعَا

٨. تلاقى على وادى اليقين قلوبهم

خوافق يذكرون القَطَا والمَشارعا

٥. **العيس** : الجمال .

الوخد : إيراعها فى المشى .

المدى : الدهر. يفنون المدامع : يبكون كثيراً فيأتون على ماء العيون الموجودة فى عيونهم .

٦. **ذات** اللون الأصفر وهى صفة الأزهار.

٧. **لِبان بكسر اللام** : هو اللبن .

٨. **أصل تلاقى** : تتلاقى .

المشارع : جمع مشرع وهو الشريعة يقصد ما شرعه الله سبحانه وتعالي على يد رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم .

٩. قلوبٌ عرفن الحقَّ بالحق وانطوتْ

عليها جنوبٌ ما ألِفْن المضاجعا

١٠. إذا ما انثنوْا أو رجَّعوا الذكر خلتهم

وصُولاً لداناً أو حماماً سواجعا

١١. تُضئ من التقوى خبايا صُدورهم

وقد لَبِسوا الليل إليهم مدارعا

١٢. تكاد مناجاة النبىِّ محمد

تَنِمُّ بها مسكاً على الشُّمِّ ذائعا

١٣. تخالهم النَّبت الهشيم تغيُّـراً

وقد فتقوا رِيْضاً من الذكر يانعـا

٩. متأثراً فيها بقوله تعالي :

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ .....﴾

(السجدة:١٦)

١٠:- **انثنوا** : مالوا إلي طريق آخر وارتفعوا أو انحدروا والتلبية مستحبة للحاج فى هذه الأماكن : هم نشطون كأنهم أغصان قوية لينة وكأن تلبيتهم سجع الحمام .

١١. مدارع جمع مدرع وهو : الدرع .

١٣. فتقوا : شقوا .

١٤. خذوا القلب يا رَكْب الحجاز فإننى

أرى الجسم فى أسْر العلائِقِ قابعـا

١٥. ولا تُرجعوه إنْ قَفلتُم فإنمـا

أمانتكُم ألاَّ تَرُدُّوا الودائعـــا

١٦. مع الجمرات ارموه يا قوم إنـه

حَصَاةٌ تلقَّتْ من يدِ الشَّوقِ صارعـا

١٧. تخلَّص أقوامٌ وأسلمنى الهـوى

إلي عُلُقٍ سدَّتْ علىَّ المطامعـا

١٨. هُمُو دخلوا باب القَبُول بقَرْعِهم

وحسْبى أن أبقى لِسِنّى قارعـا

١٩. أيَنْفكُّ عزْمِى عن قيودٍ ثقيلـةٍ ؟

٢٠- وتُسعِف (لَيْتَ) فى قضاء لُبانتى

ويترك (سوفَ) فعل عزمى المضارعا

١٤. **العلائق** :جمع علاقة كسحابة وهى ما يتبلغ به من عيش.

١٧. العلق كل الاشغال أو هو ما يتبلغ به من عين .

٢١. إذا شَرِّق الأرشاد خابت بصيرتى

كما بعثت شمس السَّراب المَخادِعا

٢٢. فلا الزَّجْرُ ينهانى ، وإن كان مُرهِباً

ولا النُّصْحُ يُثنينى وإن كان ناصعا

٢٣. فيا مَنْ بناءُ الحَرْفِ حَامَرَ طبعهُ

فصار لتأثير العوامل مانعا

٢٤. بَلَغْتَ نِصاب الأربعين فَزَكِّها

بفعلٍ تُرَى فيهِ مُنِيباً وراجِعا

٢٥. وبادِرْ بوادى السُّمِّ إنْ كنت راقِياً

وعاجِلْ وُقُوع الفَتْقِ إن كنت رَاقِعا

٢٦. فما اشْتَبَهَتْ طرق النجاة وإنما

رَكِبْتَ إليها مِنْ يَقِينِكَ طالِعا

* * * * * * *

ثالثاً : ابن عبد ربه وتجربته الشعرية :

كان لابن عبد ربه وجود فاعل فى مجال الشعر فى الحياة الأندلسية ، وقد ورد شعره مبثوثاً فى كتابه العقد الفريد ، وفى عدد من أمهات الكتب التى أرَّخت له وتحدّثت عنه مثل : يتيمة الدهر للثعالبى ، ومعجم الأدباء للحموى وغيرهما .

وقد اختلفت الرؤى النقدية حول شعره اختلافاً كبيراً ، يتسم بالإغراق فى السلب حيناً ، وبالإغراق فى الإيجاب حيناً آخر ، حيث رأينا بعض المحدثين يبعده عن التصنع والتكلف ويضعه فى عداد شعراء الطبع ، ويجعله فى طبقة واحدة مع المبرّزين فى هذا الفن **فالدكتور / عمر فرّوخ يرى أنه** كان شاعراً مكثراً صحيح الأسلوب ، متين السبك يغلب على شعره منطق العلماء ، وفيه شىء من الطلاوة ، وليس فيه من الصناعة إلاّ ما جاء عفواً [1].

ومن النقاد من لا يتصور أنه رجل صناعة وحبٍ للكلام الجميل كما لا يُسلّم بأنه ليس من الشعراء الموهوبين ، بل يرى أنه شاعر متمكن من أدواته الفنية ، مستوعباً لاتجاهات عصره ، وشعره يتسم بالطبع ولا مجال فيه للصنعة والافتعال . [2]

---

[1]) تاريخ الأدب العربى جـ٤/٢١١ .

[2]) انظر الأصول الفنية للشعر الأندلسى ، د.سعد شلبى ، صـ ٤٠٢.

وشعره أشبه بشعر ابن زيدون فى الجمع بين روعة الشرقيين وجزالتهم، ورقة الغربيين وسلاستهم، وقد شهد له بالتقدم والإجادة كثيرون من رواة المشرق ونُقَدَة الشعر عندهم [1].

وتؤكد المصادر أنه كان موضع إعجاب وتقدير من القدماء، فقد روى "**ياقوت**" فى "**معجم الأدباء**" أن أبا الوليد بن عسال لقى المتنبى فى جامع عمرو بن العاص **وأنه قال له**: أنشدنى لمليح الأندلس. يعنى ابن عبد ربه- **فأنشده**:

يا لؤلؤاً يسبى العقول أنيقاً

ورشا بتقطيع القلوب رفيقا

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله

دراً يعود من الحياء عقيقا

وإذا نظرت إلي محاسن وجهه

أبصرت وجهك فى سناه غريقا

يا من تقطع خصره من رقة

ما بال قلبك لا يكون رقيقا

فاستعاده المتنبى ثم صفق بيديه وقال: يا ابن عبد ربه لقد يأتيك العراق حبواً. [2]

وهذه ليست شهادة واحد من العاطلين من حلية الفن .. بل إنها شهادة رجل أقر الإجماع النقدى له بالتفرد والنبوغ والعبقرية. فابن عبد ربه شاعر عظيم،

---

[1]) انظر: تاريخ الأدب العربى للأستاذ أحمد حسن الزيات. صـ ٣٢٢.
[2]) انظر: معجم الأدباء ٤/٢٢٢-٢٢٣

وشاعريته فى مستوى معظم شعراء الأندلس كفاءةً واقتداراً .. ولشعره وقع موسيقى حلو، وخيال جيد وبساطة جميلة .[1]

وإذ كانت الغالبية من نقاده قد أشادت به وبفنه ، وأعطته حقه من الإنصاف والتقدير.

فإن الدكتور / شوقى ضيف - قد صدر عن رأى فيه سلب لكثير من محامده الشعرية ، وانتزع لقدراته التعبيرية .

فهو عنده شاعر متكلّف لم يصدر فيما صدر عنه عن عاطفة حقيقية ، وقلما يقع له فى الغزل والخمر والزهد شعر جيد . بل فى شعره تكلف شديد بعد أن صار كل همّه تقليد أنداده ومحاكاتهم فى فنون القول ومجالات الإبداع .[2]

وهذا الرأى للناقد الكبير فيه بعض الإسراف والتجنى ؛ لأن المتابع لشعر ابن عبد ربه يجد فيه من جمال الفن ، وروعة الأداء ، وأريحية التمكن ما ينفى عنه صنعة التكلف والافتعال والصنعة . والتأسّى بالمشارقة وغيرهم فى مجال الفنون كان مطلباً مُلحاً من مطالب الضرورة تفرضه طبيعة التطور وسُنّة الانتماء .

وقد سبق أن أشرنا إلي أن الحضارة العربية فى الأندلس لم يكن فى مقدورها أن تنشئ أدباً ومعرفة منفصلة وهى فى سبيلها إلي ذلك إلي جذورها المشرقية على اعتبار أنهما فى المشرق والمغرب يمثلان فى النهاية حضارة واحدة .

فما صنعه ابن عبد ربه وغيره لا يُعد نقيصة فى حقّهم ، كما لا يُعد فى كل حال متابعة سالبة تضيع فى ثناياها معالم الشخصية الأندلسية وتذوب . إنه كما

---

[1]) انظر : الهلال ديسمبر ١٩٧٥م

[2]) انظر : الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٤١٨ وأيضاً : تاريخ الأدب العربى ص ١٨٨ للناقد .

يقول الدكتور أحمد هيكل لم يسر في شعره متابعاً للمسارقة بمعنى التقليد والإحتذاء أي نسخة من الأصل ..

وإنما كان يعارضهم ويهدف إلي التفوق عليهم كنوع من تأكيد الذات .[1]

فأغلب الظن أن ذلك كان من باب إثبات القدرة على النظم وامتلاك أدوات الشعر وفي الوقت نفسه مجاراة المشارقة فيما ينشدون لتأكيد وإظهار مواكبة الأندلسيين في حركة الشعر لأندادهم في المشرق العربي .

فابن عبد ربه لم يكن مجرد ناقل ، وإنما كان يستوحي بيئته ، ويخلع من نفسه ومهارته على صياغته ما يجعلها مصورة للبيئة الأندلسية من جهة ولشاعرنا الكبير ابن عبد ربه من جهة أخرى .[2]

وبمتابعة شعره المبثوث في كتابه أو الذي أوردته بعض المصادر الأخرى وجدناه ينتظم عدداً من أغراض الشعر المختلفة .

فقد قال في المدح والهجاء والغزل والوصف والرثاء ، وقال في الطبيعة والعتاب وشكوى الزمان إلي جانب ما حظي به شعره الزهدي من احتفاء ، وأرجوزته الشعرية التي مدح فيها عبدالرحمن الناصر وعدد من بطولاته مبرزاً أحداث العصر مما يدل على أن الرجل مارس الإبداع في أغراض الشعر الكثيرة وفنونه المتعددة التقليدي منها والجديد .

ومن شعره في شكوى الزمان : [3]

ودهر سادت العبدان فيه		وعاشت في جوانبه الذئاب

---

[1]) انظر : الأدب الأندلسي ص ٢٢٩ .
[2]) انظر : الأصول الفنية للشعر الأندلسي صـ٤٢٧ وما بعدها .
[3]) العقد الفريد ١/٢.

وأيـام خلـت مـن كـل خيـر		ودنيـا قـد توزعهـا الكـلاب
كـلاب لـو سـألتهم ترابـاً		لقـالوا عنـدنا انقطـع التـرَاب
يعاقـب مـن أسـاء القـول فـيهم		وإن يُحسـن فلـيس لـه ثـواب

ويبـدو أن الشـاعر قـد أنهكتـه رحلـة الحيـاة ، وأجهـده عنـاء التفلـت مـن مواجهتها بعد أن رأى انقلاب القيم ، وانفلات الأخلاق ، وتبدل الموازين . فصدر عن توجع وحسرة عما أصاب الحياة وحل بساحتها من متناقضات .

فالعبيد صاروا سادة ، وتحول الطغيان فى نفوس بعض البشر إلي افتراس وفتك وإفساد يباشره من تحولوا إلي ذئاب وكلاب ... وكيف يوجد الخير إذن وقد فرضت الوحوش الكاسرة سلطانها على الحياة والناس ؟

وكيف يهنأ الإنسان ويعيش آمناً فى مجتمع تحكمه طبيعة الشّحّ والأنانية ، والناس فيه لو سألوا التراب لامتنع من يملك القوامة عليه عن إجابة المطلب رغم يسر الوجود وتفاهة القيمة ؟

ومع هـذه الرؤيـة التشـاؤمية مـن الشـاعر رأيناه يباشر أحياناً مهمة الإصلاح فيوجه الناس إلي ضرورة مد الجسور بالود إلي من يرجى ودّه مهما كان منه من معاتبة .. فالوصل بينك وبينه مطلوب ، والاخلاص فى الحب له مرغوب . أما منْ لا يستحق الودّ ولا يُرجى عنده الخير .. ومنْ لا يُشاكلك فى التوجه والألفة : فلا تُبقى له على أثر ..

يقول : (١)

---

١) السابق ٨٣/٢

صل منْ هويت وإن أبدى معاتبة

فأطيب العيش وصل بين إلفين

واقطع طبائع خدن لا تلائمه

فربما ضاقت الدنيا باثنين

وشعره في هذا اللون يتسم بالوضوح والمباشرة مع خفة الوقع وجمال الأداء وهو في مدائحه أكثر قوة وأعظم بياناً . ولعل ذلك يرجع إلي حرصه على التجويد فيه أملاً في نيل إعجاب الممدوح ، وقد كان ممدوحيه في كل حال أمراء ورجال سلطة وسلطان وهم عرب أصحاب ذوق فطري في مجال البيان .

وفضلاً عن ذلك فحولهم من نجوم الفن وأصحاب الكلمة عشرات مما يدعو إلي ضرورة الحرص على التفوق في مجال المنافسة فيه واقعة لا محالة .. وفي بيئة كل ما فيها معد للتأريخ والتسجيل ، لهذا كانت مدائحه من أعظم شعره وهو النابه الوجيه في بلاط عدد من الأمراء المتتابعين .

ومن شعره في مدح عبدالرحمن الناصر بعد انتصاره في بعض معاركه يقول : [1]

قد أوضح الله للإنسان منهاجاً

والناس قد دخلوا في الدين أفواجا

وقد تزينت الدنيا لساكنها

كأنما ألبست وشياً وديباجا

مات النفاق وأعطى الكفر ذمته

---

[1]) السابق ٤٩٩/٤

وذلت الخيل إلجاماً وإسراجـا

أُدخلت فى قبة الإسلام مارقـة

أخرجتهم من ديار الشرك إخراجا

بجحفل تشرق الأرض الفضاء به

كالبحر يقذف بالأمواج أمواجـا

ترق فيه بروق الموت لامعة

وتسمعون به للرعد أهزاجـا

ومنهـــا :

تملأ بك الأرض عدلاً مثلما ملئـت

جوراً وتوضح للمعروف منهاجـا

يا بدر ظلمتها .. يا شمس صحبتها

يا ليث حومتها إن هائج هاجـا

إن الخلافة لن ترضى ولا رضيت

حتى عقدت لها فى رأسك التاجـا

فالشاعر كما نترى يغترف من معين صاف كل معانيه وأفكاره مشمراً عن ساعد الفن ناعتاً صاحب العزة الناصر بكل ما يعلى هامته ، ويرفع فى سجل الحياة منزلته وقد هيأ لذلك عند المتلقين بمفتاح الوجدان الدينى الذى لا تغلق أبواب القلوب أبداً إذا ما بدا فى الأفق ، وهو فيما فعل لم يدع ولم يزيف .. فقد

كانت حروب الأندلس فى معظمها حرباً ضد أعداء الدين .. فأى انتصار عليهم إنما كان يُعد انتصاراً للإسلام .

ولأجل هذا دخل الناس فى الدين مستظلين بمنهج الإسلام الذى أوضحه الله ولم يعد نفاق ولا شرك ولا شقاق ، ولما كان أمر الانتصار على هذا المستوى الجهادى فى سبيل الدين فالخليفة عادل ملأ الأرض عدلاً وكانت قبل ذلك تئن من وطأة البغى والظلم، ونشر المعروف المعروف وأمر به بعد أن كان المنكر يغلف الحياة بالإفك والضباب .

وهو قبل ذلك وبعده البدر الذى ينير لهم الحياة والشمس التى تدفئ الكون وتحقق النماء .. فإذا اعتدى معتد أو تمرد حاقد كان الخليفة هو الأسد الهصور والقوة الرادعة .

على هذا المستوى من الأداء الجيد صدر شاعرنا فى مديحه حتى كان المدح عنده من أعظم شعره وأجوده .ومكن الجدير بالذكر هنا أن الشاعر صدر عن تنوع فى التعبير فى الفن الواحد كما هو الحال فى المدح .فقد تلون الأداء مع كل موقف بما سناسبه فإذا كانت قصيدة المدح تتحدث عن الحرب والشجاعة فيها ، وشدة البأس فى مواجهة الأعداء .. كانت الألفاظ والصور والمعانى وقوة السبك على مستوى المنطلق قوة وشدة ووقعاً .

أما إذا كانت المدائح منطلقها الحديث عن صفات الخير والبر فى الممدوح كالجود والكرم وجدنا الصياغة البيانية هادئة سلسة رقيقة بما يتلاءم مع واقع

اللحظة الحاضرة وطبيعة التوجه..وإن شئت تأكيداً على ذلك **فاستمع إليه يقول مادحاً أحد قواد عبدالرحمن الناصر** : [1]

الله جـرد للندى والبأس

سيفاً فقلده أبا العبـــاس

ملك إذا استقبلت غرة وجهـه

قبض الجاء إليك روح اليـأس

وجه عليه من الحيـاء سكينة

ومحبة تجرى مع الأنفـاس

وإذا أحب الله يومـاً عبده

ألقى عليه محبة النـــاس

فالشاعر يصدر فى كل حال على حدة عما يلائمه من ألوان التعبير مما يدل على امتلاكه لناصية القول وقدرته على التنويع والتلاؤم.

ومن فنونه الشعرية التى أجاد فيها فن الرثاء .. فقد ورد منه : " شعر كثير ومعظمه في أهله والشاعر فيه صادق العاطفة وهو أجود شعره " [2] .

وإذا نظرنا إلي مستوى الأداء الفتى عند الشاعر فى هذا الفن وجدناه يصدر عن طبع سخى يجود بأقصى ما يمكن له العطاء إذا كان الفقيد واحداً من ذوى قرباه وخصوصاً إذا كان قطعة من قلبه وكبده .. كتلك القصائد التى انطلق

---

[1]) انظر العقد الفريد ٣١٢/١

[2]) انظر تاريخ الأدب العربى للدكتور عمر فروخ صـ٢١١

فيها معبراً عن نفس مكلومة وقلب يتمزق بالحزن والأسى على بهجة الدنيا وزينتها.

ولاشك أن أصدق الرثاء ما كان فى فقد الأبناء من ذلك قوله وقد اغتالت المنية فلذة كبده : [1]

على مثلها من فجعه خاننى الصبر

فراق حبيب دون أوبته الحشر

ولى كبد مشطورة فى يد الاسى

فتحت الثرى شطر وفوق الثرى شطر

يقولون لى : صبِّر فؤادك بعده

فقلت لهم : مإلي فؤاد ولا صبر

فُرَيْخٌ من الحمر الحواصل ما اكتسى

من الريش حتى ضمه الموت والقبر

إذا قلت أسلو عنه هاجت بلابل

يحددها فكر يجدده ذكر

وأنظر حولى لا أرى غير قبره

كأن جميع الأرض عندى له قبر

فالشاعر هنا يعتصر ألماً ويذوب لوعة وأسى على فقده واحد من حبات القلوب وفلذة كبده الذى انتزعه الموت انتزاعاً ، فشطر كبده شطرين .. أبقى له شطر يعيش به .. أما الشطر الثانى فقد دُفن تحت الثرى . وهو بشطره الذى بقى

---

[1]) العقد الفريد ٤١٦/٢

يحيا معذب النفس والفؤاد لا قدرة له على الصبر ولا قدرة له على السلو والنسيان.وكيف ينسى نصفه الآخر وفى كل يوم ذكرى تتجدد.

ثم يبالغ الشاعر - فى براعة - فى حزنه ونظرته إلي الدنيا عندما جعل الأرض كلها قد أصبحت قبراً فحيثما توجه بالنظر إلي رأى القبر الذى يتسع ويمتد فى مساحته ليملأ حيز البسيطة كلها. وقد يصل به الأمر إلي ما هو أبعد من ذلك فى الإغراق والتوجع على ما حل به من حزن وكمد سببه موت ابنه الذى بموته مات السرور وقبرت البهجة **يقول** : [1]

لا بيت يسكن إلاّ فارق السكنا

ولا امتلأ فرحاً إلاّ امتلا حزناً

لهفى على ميت مات السرور به

لو كان حياً لأحيا الدين والسننا

واها عليك أبا بكر مرددة

لو سكنت ولَهاً أو فترت شجناً

إذا ذكرتك يوماً قلت واحزناً

وما يرد على القول : واحزنا

يا سيدى ومراح الروح فى جسدى

هلا دنا الموت منى حين منك دنا

حتى يعود بنا فى قعر مظلمة

---

[1]) السابق ٤١١/٢

لحد ويلبسنا فى واحد كفنـــا

يا أطيب الناس روحاً ضمه بدن

أستودع الله ذاك الروح والبدنـــا

لو كنت أعطى به الدنيا معاوضة

منه لما كانت الدنيا له ثمنـــا

إنها زفرات حارة ، وأنّات باكية ، ونبضات قلب أجهده طول البكاء وكثرة الأحزان فالوديعة المستردة لا شيء يعدلها من متاع الدنيا مهما علا وتسامى .. وكم كان الشاعر يود لو فارق الدنيا يوم فارقها الحبيب المفدى .. ذلك الذى أضنى الفؤاد وألهب المشاعر. وحول الكلمات على شفاه والده الحزين إلي قطع من الألم والعذاب . وقد أشرنا قبل ذلك إلي أن شاعرنا صدر عن فنون أخرى كثيرة غير ما ذكرنا .. فله فى الغزل شعر رائق وهو أحسن شعره [1] ، كما أن له شعراً فى الهجاء وهو فيه مقزع ، وقد كان مهيأ له بطبعه لما فى نفسه من استعداد لرؤية المثالب والسيئات ولأنه كان مرهف الحس رقيق المشاعر تثيره البادرة ، ويغضبه التافه من الأمور.[2]

وقد توقف نقادنا حول أرجوزته التاريخية التى سجل فيها بطولات عبدالرحمن الناصر موقفاً لا ينمّ عن رضا كامل بها وبفنّيتها ، فأسلوبه فيها **كما يرى الدكتور شوقى** ضيف يخلو من التصاوير ، مما يدخلها فى دوائر الشعر التاريخى التعليمى.

---

[1]) أنظر : تاريخ الأدب العربى . د. عمر فروخ ٢١١/٤.
[2]) أنظر : الأصول الفنية للشعر الأندلسى صـ٤١٨.

وأن أجنحته كانت كانت من القِصَر بحيث لم يستطع أن يحلق فيها بين شعراء الملاحم المبدعين .

وهى كما يرى هيكل أشبه ما تكون بالمنظومات التاريخية ، فليس فيها من عناصر الشعر شيء .

ومن الإنصاف للشاعر والشعر أن تعد فى نتاجه التاريخى لا فى تراثه الفنى [١].

بينما يرى آخرون أن أرجوزته تلك لم تكن بمجرد حافظة لتاريخ خليفة وغزواته بل كانت بجوار ذلك عملاً قصصياً شبه ملحمى ، وأن جمال الأسلوب فيها وحُسن التصوير والنزعة العاطفية وغير ذلك من سمات الفن يبعدها عن ساحة التاريخ ، ويجعلها أكثر مدخلية فى ميدان الفن .[٢]

ويعجب ناقد آخر من رفض الرافضين إدخال أرجوزة ابن عبد ربه فى مجال الفن وعدّها منظومة تاريخية تعليمية فى الوقت الذى يراها بعض المستشرقين الأسبان الأصل فى احتذاء شعراء الملاحم فى أسبانيا فيما بعد.[٣]

وفى رأيى أن القائلين بغير فنيتها قد أسرفوا بعض الشيء فى النتزع كل سمات الفن منها وإلحاقها بالملاحق التاريخية التى تصلح للتعليم فقط ولا مدخلية لها فى الفن . لأنها وإن كانت لا ترقى فى فنيتها إلي مستوى الشعر الرفيع إلاّ أنه قد توافر لها بعض السمات الفنية التى تجعل لها مدخلية فى باب الفن .

---

[١]) الأدب الأندلسى صـ٢٣٢.
[٢]) أنظر : الأصول الفنية للشعر الأندلسى صـ ٤٢٩.
[٣]) أنظر : الدكتور الطاهر مكى فى الهلال ديسمبر ١٩٧٥م .

إذ مهما كانت ضآلة تلك السمات فيها فهى تمثل لوناً جديداً من الشعر كان لابن عبد ربه فضل المشاركة فيه ، وكانت هى وغيرها ذوات أثر فى نشأة فن الملاحم وتطوره فى أوربا.

والناظر فى شعر ابن عبد ربه وفى كل الأغراض التى صدر عنها يجده يتسم بالبساطة والغنائية .. بساطة الفكرة حيث لا مجال فيها لتعقيد ولا لتركيب ولا تفلسف . وأيضاً بساطة الصورة الشعرية التى بلغ من بساطتها إمكان أن تُلمس وتُحس.

ونراها أيضاً فى الألفاظ ووضوحها فلا خفاء ولا إبهام كما يتسم شعره بالغنائية حيث يغلب الإيقاع الموسيقى ويتضح العنصر العاطفى ، وتشيع الرقة والسلاسة [1] مع ميل شديد إلي الحفاظ على التيار القديم متبعاً فى ذلك منهج المشارقة من حيث المعانى والصور ، والألفاظ والأوزان .[2]

وهو - كما قلنا - لا يحاكى لمجرد المحاكاة .. بل لتأكيد فنه وإثبات تفوقه ، وهذا وحده دليل تمكن وبرهان نبوغ .

ابن عبد ربه والموشحات :

الموشح : كلام منظوم على وزن مخصوص .

والموشحات : جمع موشحة .

---

[1]) الأدب الأندلسى صـ٢٣٧ وما بعدها .

[2]) الأصول الفنية للشعر الأندلسى صـ٤٤٤.

والموشحة : قطعة شعرية طويلة فى الأغلب تتألف من مقاطع تترتب فيها الأسطر والقوافى على نسق مخصوص ([1]) ، وقد اختلف النقاد اختلافاً بيّناً حول نشأتها.

ولعل السبب فى ذلك يرجع إلي غموض تلك النشأة ، وعدم وجود نصوص أدبية أولية تكشف جانباً من بدايات هذا الفن .

فمن مؤرخى الأدب وناقديه منْ يرى أنه أندلسى أصيل أوجدته البيئة الأندلسية خاصة فجرى نبعه على أيديهم ثم اجتذب إليه من العرب فتلقفته بلاد المغرب وتغنى به على طريق المحاكاة والتقليد أدباء المشرق .[٢]

ولعل الباعث على ظهور هناك ازدهار فن الغناء ، وحاجتهخ الدائمة إلي التنوع فى الألحان . فارتباط ظهور الموشحات عند هؤلاء يرجع إلي تطور فن الغناء وتنوع الموسيقى ذلك التطور الذى حدث بفعل " **زرياب** " ومدرسته الغنائية .

ومن الناس من يدعى أن الموشحات وُجدت فى البيئة الأندلسية عندما ضاق الشعراء بقيود الشعر العربى من وزن وقافية وإعراب .. فتلك القيود الثقيلة- فى رأيهم - وقفت حائلاً دون حرية الشاعر فى الإبداع والإنشاد .. فكانت الموشحات ثورة أدبية فى مواجهة التقاليد الشعرية .[٣]

---

[١]) أنظر : تاريخ الأدب العربى د.عمر فروخ ٤٢٢/٤.
[٢]) فن الأدب الأندلسى د.محمد كامل الفقى صـ١٠٧.
[٣]) أنظر : الأصول الفنية للشعر الأندلسى صـ٣٢٧.

رابعاً : أبو البقاء الرندى يستصرخ المسلمين لنجدة الأندلس :

لم تكن قصيدة ابن الأبّار السينية على قدرها وحيدة فى باب رثاء المدن الأندلسية أو رثاء الأندلس بصفة عامة وإنما نظم الشعراء الأندليسون فى هذا المجال قصائد كثيرة لم يكن يكتفون فيها برثاء المدن والممالك الأندلسية التى كانت تتساقط تباعاً فى أيدى الفرنجة ، وإنما جعلوا من قصائدهم مناسبة لاستصراخ المسلمين فى المغرب والمشرق إلي نجدة ما تبقى من ديار الأندلس ، وإلي النهوض الجاد المخلص لإنقاذ مسلميها الذين يُسامون خسفاً ويباعون بيع العبيد ، وتُنتهك حرمتهم وتُغتصب حرائرهم وقد ضاعت الحماية وقل النصير، وعجزوا عن مدافعة عدوّهم الخشوم ، ومن أشهر قصائدهم فى هذا المجال : نونية أبى الطيب صالح بن شريف الرندى المتوفى سنة ٦٨٤هـ وهى قصيدة يبدأها بتعزية نفسه والمسلمين بأن شأن الزمان التقلب ولا شىء يبقى على حاله ، ويتساءل كما هى عادة الشعراء فى مقام الرثاء عن الأمم البائدة والملوك الغابرين من عاد وثمود وساسان ودارا ملوك الفرس وغيرهم ، ثم ينتقل إلي إلي رثاء مدن الأندلس فيعددها ذاكراً فضائلها ، ويخلص من ذلك إلي استنهاض همم المسلمين للعمل على استخلاصها من أيدى أعدائهم ، ويُنهى القصيدة بصور فاجعة لنساء المسلمين فى الأندلس وهن يُنْهَبْن ويُسْبين ويعلق عليها بأنها وقائع تُدمى القلب وتفطره إن كان ما يزال فى القلب إسلام وإيمان .

يقول ابن الرندى فى قصيدته : ـ

١. لكل شىء إذا ما تم نقصـــان

فلا يُغر بطيب العيش إنســان

٢. هى الأمور كما شاهدتهــا دول

من سره زمن ساءته أزمــان

٣. وهذه الدار لا تبقى على أحـد

ولا يدوم على حال لها شــان

٤. يمزق الدهر حتماً كل سابغـة

إذا نبت مشرفيات وخرســان

٥. وينتضى كل سيف للفناء ولـو

كان ابن ذى يزن والغمد غمـدان

٦. أين الملوك ذوو التيجان من يمن

وأين منهم أكــاليل وتيجان

٧. وأين ما شــاده شداد فى إرم

وأين ما ساسه فى الفرس ساسان

٨. وأين ما حازه قارون من ذهـب

وأين عاد وشداد وقحطــان

٩. أتى على الكل أمر لا مرد لـه

حتى قضوا وكأن القوم ما كانوا

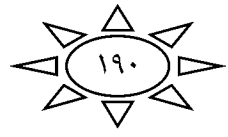

١٠- وصار ما كان من مُلكٍ ومن مَلكٍ

كما حكى عن خيال الطيف وسنان

١١. دار الزمان على دارا وقاتلـه

وأم كسرى فما أواه إيـوان

١٢. كأنما الصعب لم يسهل له سبب

يوماً ولا ملك الدنيا سليمـان

١٣. فجائع الدهر أنواع منوعـة

وللزمان مسرات وأحـزان

١٤. وللحوادث سلوان يسهلهـا

وما لما حل بالإسلام سلـوان

١٥. دهى الجزيرة أمر لا عزاء له

هوى له أحد وأنهد ثهـلان

١٦. أصابها العين فى الإسلام فارتزأت

حتى خلت منه أقطار وبلـدان

١٧. فاسأل بلنسية ما شأن مرسيـة

وأين شاطبة أم أين جيـان

١٨. وأين قرطبة دار العلـوم فكم

من عالم قد سما فيها له شأن

١٩. وأين حمص وما تحويه من نزه

ونهرها العذب فياض وملآن

٢٠. قواعد كن أركان البلاد فمـا

عسى البقاء إذا لم تبق أركـان

٢١. تبكى الحنيفية البيضاء من أسف

كما بكى لفراق الألف هيمـان

٢٢. على ديار من الإسلام خاليـة

قد أقفرت ولها بالكفر عمران

٢٣. حيث المساجد قد صارت كنائس ما

فيهن إلاّ نواقيس وصلبـان

٢٤. حتى المحاريب تبكى وهى جامدة

حتى المنابر ترثى وهى عيدان

٢٥. يا غافلاً وله فى الدهر موعظة

إن كنت فى سِنة فالدهر يقظان

٢٦. وماشياً مرحاً يلهيه موطنـه

أبعد حمص تغر المرء أوطـان

٢٧. تلك المصيبة أنست ما تقدمهـا

ومالها على طوال الدهر نسيـان

٢٨. يا راكبين عتاق الخيل ضامـرة

كأنها فى مجال السبق عقبـان

٢٩. وحاملين سيوف الهند مرهفـة

كأنها فى ظلام النقع نيـران

٣٠. وراتعين وراء البحر فى دعةٍ

لهم بأوطانهم عز وسلطان

٣١. أعندكم نبأ من أهل أندلس

فقد سرى بحديث القوم ركبان

٣٢. كم يستغيث بنا المستضعفون وهم

قتلى وأسرى فما يهتز إنسان

٣٣. ماذا التقاطع فى الإسلام بينكم

وأنتم يا عباد الله إخوان

٣٤. ألا نفوس أبيات لها همم

أما على الخير أنصار وأعوان

٣٥. يا من لذلة قوم بعد عزهم

أحال حالهم كفر وطغيان

٣٦. يالأمس كانوا ملوكاً فى منازلهم

واليوم فى بلاد الكفر عبدان

٣٧. فلو تراهم حيارى لا دليل لهم

عليهم من ثياب الذل ألوان

٣٨. ولو رأيت بكاهم عند بيعهم

لهالك الأمر واستهوتك أحزان

٣٩. يا رُبَّ أم وطفل حِيل بينهما

كما تفرق أرواح وأبدان

٤٠. وطفلةٍ مثل حُسن الشمس إذ طلعت

كأنما هى ياقوت ومرجـان

٤١. يقودها العِلْج للمكروه مكرهة

والعين باكية والقلب حيران

٤٢. لمثل هذا يذوب القلب من كمد

إنْ كان فى القلب إسلام وإيمان

أفكار القصيدة :

تضمنت هذه القصيدة عدة أفكار مترابطة متتابعة أطنب الشاعر فى عرضها متعمداً ، فقد أطال فى مقدمته التى عبر فيها عن استحالة دوام أى شىء على حاله وحتمية التغير والتبدل ليمهد لنفسه وللسامعين خبر ما وقع بالأندلس ، ثم جعل يعدد المدن الأندلسية ويخص منها بالتنوية دار الحضارة والعلم وعاصمة الخلافة ورمز مجد المسلمين وعزهم ثم انطلق يرسم بشعره الصور الخيالية والواقعية ويصور كيف بكت الحنيفية البيضاء تألماً وأسفاً ، وبكت المساجد التى حُوّلت إلي كنائس مآذنها ومنابرها ، ثم انتقل إلي الصور الواقعية فراح يعرض كيف أخرج العزل الضعفاء فى بيوتهم وكيف وقع التفريق بين الأم رضيعها ، وكيف راح الجميع ضحية الهوان والمذلة بالبيع فى سوق العبيد ، وخاض من عرض هذه الصور الخيالية والواقعية إلي مخاطبة المسلمين الحريصين على جمع الخيل وتكديس السيوف والقبوع بجوارها فى دعة وهدوء وراء البحر ، ومضى يحرضهم على الجهاد ويناشدهم الدفاع عن إخوانهم المستذلين المطرودين من ديارهم ويذكرهم بمقتضى الأخوة فى العقيدة وبواجباتهم نحوهم ، وختم القصيدة

بذلك البيت القوى الذى جمع فيه معانى الرثاء والتحريض والتوبيخ على التقاعس والخنوع **وهو** :

لمثل هذا يذوب القلب من كمد

إن كان فى القلب إسلام وإيمان

وما أشبه الليلة بالبارحة وما أسرع ما تذكرنا هذه الأبيات بمأساة المسلمين فى العصر الحديث التى تعددت مشاهدها ما بين فلسطين والبوسنة والشيشان وغير تلك الأقطار مما تكالب عليه أعداؤهم ولم يرعوا فيهم رفقاً بطفل ولا شيخ ولم يتذكر فى معاملتهم أى معنى من معانى الإنسانية التى يتشدق العالم الغربى الحديث بترديدها وكأنه يتباهى باحترامها ثم يغضى طرفه عن كل جريمة يكون ضحيتها شعب من شعوب المسلمين وما تكتمل تلك الجريمة وما كان لها أصلاً أن تقع لولا تمزق المسلمين وفرقتهم والتناحر الداخلى فيما بينهم **وحتى يصْدق فيهم قول الشاعر** :

٣١. أعندكم نبأ من أهل أندلس

فقد سرى بحديث القوم ركبان

٣٢. كم يستغيث بنا المستضعفون وهم

قتلى وأسرى فما يهتز إنسان

٣٣. ماذا التقاطع فى الإسلام بينكم

وأنتم يا عباد الله إخوان

ولن نطيل كثيراً فى شرح النص والكشف عن جمالياته ويكفينا أن ندعو القارئ إلي ملاحظة أمرين أحدهما عناية الشاعر بترتيب أفكاره والتصاعد

بصوره بطريقة منطقية طريفة والأمر الآخر هو تأثره بذوق أهل عصره الذى لا يطرب للشعر إلاّ إذا ازدحمت فين المحسنات البديعية ولا يرى البلاغة إلاّ من خلال الطباق والتجنيس والتلاعب بالألفاظ حتى فى هذا المقام الحرج، وهو يطابق بين" **تم ونقصان** " ، وبين " **سر وساء** " ويجانس بين "**شاد وشداد**" و" **آوى وإيوان** " ويقرر أن كل سيف مآله إلي الفناء كان سيفاً من حديد أم كان من لحم ودم كسيف ابن ذى يزن وعذر الشاعر فى هذا التلاعب بالألفاظ والتشاغل بالطباق والجناس والتورية وغيرها من ألوان البديع أنه لم يخرج عن ألف زمانه ولم يتقيد بغير ما يفرضه عليه ذوق معاصريه .

وإنما ينظم الشعراء ليطربوا أبناء عصرهم ويؤثروا فيهم ولا ينظمون ليرضوا أذواق أهل زماننا .

وإذا رجعنا إلي فكرة ترتيب الشاعر لأفكاره وتتابع صوره فى تسلسل محكم فنلاحظ ذلك من خلال تتبع القصيدة ، وقد بدأت بحديث عام عن مبدأ الزوال بعد التمام ثم طبقت هذا المبدأ على الأمم السابقة ثم انتقلت إلي تطبيقه على حال الأندلس الراهنة ، وكذلك نجده يرسم الصور الخيالية بعد عرض الأفكار المجردة ، ثم يعقب هذه وتلك بالصور الواقعية ، وفى الصور الواقعية يلقى الضوء أولاً على الشقاء الذى يعانى أبناء الأندلس منه بصفة عامة ، ثم ينقل عدسة التصوير إلي أسواق الخناسة وفيها يركز العدسة على الطفلة المختطفة من أحضان أمها ، ولم ينسى الشاعر أن يعود إلي الإجمال والتعميم والتركيز الشديد فى البيت الذى اختتم به النص .

****